وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

لم آتِ لألقي خطاباً

تأليـف: غابرييل غارسيا ماركيز
ترجمة: صالح علماني



آفاق ثقافية

رئيس مجلس الإدارة

رياض عصمت

وزير الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول

محمود عبد الواحد

المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب

رئيس التحرير

د. نهاد الجرد

لم آتِ لألقي خطاباً

تأليف: غابرييل غارسيا ماركيز

ترجمة: صالح علماني

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

العنوان الأصلي للكتاب:

Yo no vengo a decir un discurso

Gabriel García Márquez

آفـاق ثقافيـة

العـدد (١٠١)

أيلول ٢٠١١م

لم آتِ لألقي خطاباً = Yo no vengo a decir un discurso/
تأليف غابرييل غارسيا ماركيز؛ ترجمة صالح علماني .-
دمشق : الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م .-
١٦٠ ص؛ ٢٠ سم.

(آفاق ثقافية؛ العدد ١٠١)

١- ٨٦٨ كل غ ا ر ل ٢- العنوان
٣- غارسيا ماركيز ٤- علماني ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

أكاديمية الواجب

ثيباكيرا، كولومبيا، ١٧ تشرين الثاني، ١٩٤٤

عموماً، وفي جميع الاحتفالات الاجتماعية كهذا الاحتفال، يُختار شخص ليلقي خطاباً. ويبحث هذا الشخص دوماً عن موضوع مناسب، ويشرحه أمام الحاضرين. أنا لم آت لألقي خطاباً. كان بإمكاني أن أختار لهذا اليوم موضوع الصداقة النبيل. ولكن ما الذي يمكنني أن أقوله لكم عن الصداقة؟ كان بمقدوري أن أملأ عدة صفحات بطرائف وحكم لا يمكن لها في نهاية المطاف أن توصلني إلى الهدف المنشود. فليحلل كلّ منكم مشاعره الخاصة، ولتتأملوا واحداً واحداً في الأسباب التي تجعلكم تشعرون بتفضيل لا يقارن لأشخاص تُودِعونهم شؤونكم الشخصية الحميمة كلها، وستتوصلون عندئذ إلى معرفة سبب فعل الصداقة هذا.

مجموع الأحداث اليومية التي وحدتنا بروابط لا تنفصم مع هذه الجماعة من الفتيان الذين سيمضون اليوم لشق طريقهم في الحياة،

هذه هي الصداقة. وهذا هو ما كان يمكن لي أن أقوله لكم اليوم. ولكنني أكرر: لم آت لألقي خطاباً؛ وإنما أريد فقط أن أُعيِّنكم قضاة ضمير في هذه المحكمة كي أدعوكم بعد ذلك لتشاطروا طلبة هذا المعهد لحظة أسى الوداع.

هاهم هنا جاهزون، جاهزون للمغادرة، هنري سانتشيث، دارتانيان الرياضة اللطيف، ومعه فرسانه الثلاثة: خوسيه فاخاردو، أوغوسطو لوندونيو، وهيرمان رودريغث. وها هما هنا: رافائيل كوينكا ونيكولاس رييس، كل منهما كأنه ظل الآخر. ها هما هنا، ريكاردو غونثالث، فارس أنبوبة الاختبار الكبير، وألفريدو غارثيا روميرو، الشخص الخطير المعلن في سائر ميادين الجدال: وهما معاً، حياتان نموذجيتان للصداقة الحقيقية. ها هما خوليو بييّا فاني ورودريغو ريستريبو، عضوا برلماننا وصحافتنا. وهنا، ميغيل آنخل لوثانو وغييّرمو روبيو، رسولا الدقة. هنا هومبيرتو خايميس ومانويل أريناس وصامويل هويرتاس وإرنستو مارتينث، قناصل الانكباب والإرادة الطيبة. ها هو ألبارو نيفيا بطيب مزاجه وذكائه. وها هم خايمي فونسيكا وهيكتور كويّار وألفريدو أغيرّي، ثلاثة أشخاص مختلفون وذوو مثل أعلى واحد حقيقي: الفوز. وهاهما كارلوس

أغيرِّي وكارلوس ألبارادو، يوحِّدهما الاسم نفسه والرغبة نفسها في أن يكونا موضع فخر الوطن. ها هم ألبارو باكيرو وراميرو كارديناس وخايمي مونتويا، رفاق الكتب الملازمين لها. وأخيراً، هاهما خوليو ثيسر موراليس وغييّرمو سانتشيث، كعمودين حيين يحملان على كاهلهما مسؤولية كلماتي حين أقول إن جماعة الفتيان هذه مقدر لها أن تدوم في أفضل صور الدِغيروتيب الكولومبية. جميعهم سيمضون بحثاً عن النور مدفوعين بالمثل الأعلى نفسه.

والآن بعد استمعتم إلى خصائص كل واحد منكم، سوف أُصدر الحكم الذي عليكم أنتم كقضاة ضمير أن تتأملوا فيه: باسم المدرسة الوطنية والمجتمع، أعلن هذه الجماعة من الشبان، كما في كلمات شيشرون، أعضاء في أكاديمية الواجب ومواطني الذكاء.

أيها الحضور المحترمون، انتهت المحاكمة.

كيف بدأتُ الكتابة

كاراكاس، فنزويلا، ٣ أيار ١٩٧٠

اعذروني أولاً ، وقبل كل شيء ، لتحدثي جالساً ، ولكنني إذا نهضت فسوف أجازف في الحقيقة بالوقوع خوفاً. حقاً. لقد كنت أظن على الدوام أن أشد خمس دقائق رهبة في حياتي سأُمضيها أمام عشرين إلى ثلاثين شخصاً في طائرة توشك على التحطم ، وليس أمام مئتي صديق كما هي الحال الآن. لحسن الحظ أن ما يحدث لي في هذه اللحظة يتيح لي البدء في الحديث عن أدبي ، ذلك أنني كنت أظن أني بدأت أصير كاتباً بالطريقة نفسها التي صعدتُ بها إلى هذه المنصة : مكرهاً. أعترف بأنني فعلت كل ما هو ممكن كيلا أحضر هذه الندوة. حاولت أن أمرض ، سعيت إلى أن أصاب بنزلة رئوية ، ذهبت إلى الحلاق على أمل أن يذبحني ، وأخيراً ، خطرت لي فكرة المجيء بلا سترة رسمية وبلا ربطة عنق كيلا يسمحوا لي بالدخول إلى اجتماع بالغ الرسمية كهذا ، ولكنني نسيت أنني في فنزويلا ،

حيث يمكن الذهاب إلي كل مكان بالقميص. والنتيجة : هاأنذا هنا ولا أدري من أين أبدأ. ولكنني أستطيع أن أخبركم ، مثلاً ، كيف بدأت الكتابة؟

لم يخطر ببالي قطّ أنه يمكن لي أن أكون كاتباً ، ولكن في الزمن الذي كنت فيه طالباً ، كتب إدواردو ثالاميا بوردا ، مدير الملحق الأدبي لجريدة **الإسبيكتادور** ببوغوتا افتتاحية يقول فيها إن أجيال الكتّاب الجديدة لا تقدّم شيئاً ، وإنه لا يظهر في أي مكان قاص جديد أو روائي جديد. وانتهى إلى التأكيد أن اللوم يوجه إليه لأنه لا ينشر في جريدته إلا أسماءً معروفة لكتاب مسنين ، ولا شيء للشباب بالمقابل ، بينما الحقيقة ـ قال ـ أنه لا وجود لشباب يكتبون.

عندئذ هزني شعور تضامن مع الزملاء من جيلي ، وقررت كتابة قصة قصيرة ، لمجرد إغلاق فم إدواردو ثالاميا بوردا ، الذي كان صديقي الكبير ، أو أنه صار بعد ذلك ، علي الأقل ، صديقي الكبير. جلستُ وكتبت القصة ، وأرسلتها إلى جريدة **الإسبيكتادور**. الرعب الثاني أصابني يوم الأحد التالي عندما فتحت الجريدة وكانت قصتي على صفحة كاملة ومعها ملاحظة يعترف فيها إدواردو ثالاميا بوردا بأنه أخطأ ، إذ من الواضح أنه «بهذه القصة يظهر عبقري الأدب الكولومبي» ، أو أنه قال شيئاً من هذا القبيل.

في ذلك اليوم مرضتُ وقلت لنفسي: «في أي ورطة أدخلت نفسي! وماذا سأفعل الآن كيلا أسيئ إلى إدواردو ثالاميا بوردا؟». وكان الجواب: أن أواصل الكتابة. وكانت في مواجهتي على الدوام مسألة الموضوعات: كنت مضطراً إلى البحث عن القصة كي أتمكن من كتابتها.

وهذا يسمح لي أن أخبركم بشيء أؤكده الآن، بعد أن نشرتُ خمسة كتب: ربما تكون مهنة الكاتب المهنة الوحيدة التي تصبح أكثر صعوبة كلما مورست أكثر. فالسهولة التي جلست بها لأكتب تلك القصة ذات مساء لا يمكن مقارنتها بالجهد الذي أتكلفه الآن في كتابة صفحة واحدة. أما بشأن منهجي في العمل، فهو مرتبط إلى حد كبير بهذا الذي أقوله. لا أعرف أبداً مقدار ما سأتمكن من كتابته ولا ما الذي سأكتبه. أنتظر حتى يخطر لي شيء، وعندما تخطر لي فكرة أُقدِّر أنها جيدة وتستحق أن تُكتب. أبدأ بتقليبها في رأسي، وأتركها تنضج. وعندما تصبح جاهزة تماماً (وفي بعض الأحيان تنقضي سنوات طويلة، كما هي الحال في ***مئة عام من العزلة***، إذ أمضيت تسعة عشر عاماً وأنا أفكر فيها)، أكرر، وعندما تصبح جاهزة تماماً، أجلس عندئذ لأكتبها، وهنا يبدأ الجزء الأصعب الذي يسبب

لي أكبر ضجر. لأن ألذّ ما في القصة هو تصورها، والمضي في إغنائها، وتقليبها وإعادة تقليبها، بحيث لا يجد المرء كثيراً من الاهتمام حين يجلس لكتابة الفكرة التي قلّبها طويلاً، أو أنني، أنا على الأقل، لا أشعر بالاهتمام.

سأخبركم، مثلاً، بالفكرة التي تجول في رأسي منذ عدة سنوات، وأشك في أنها قد اغتنت بصورة كافية. سأرويها الآن، وعندما أكتبها، لا أدري متى، ستجدونها بكل تأكيد مختلفة تماماً، وستتمكنون من ملاحظة الطريقة التي تطورت بها. تخيلوا قرية صغيرة، تعيش فيها سيدة مسنة مع ابنين اثنين، ابن في السابعة عشرة، وابنة أصغر في الرابعة عشرة. إنها تقدم وجبة الفطور لابنيها، ويلاحظان في وجهها ملامح قلق شديد. يسألها الابنان عما أصابها. فتجيبهما «لا أدري، ولكنني استيقظت بفكرة أن شيئاً خطيراً جداً سيحدث في هذه القرية».

يضحك الابنان منها، يقولان إنها هواجس عجوز، أمور تنقضي. يذهب الابن ليلعب البلياردو، وفي اللحظة التي يوشك فيها علي توجيه ضربة كارامبولا[1] شديدة البساطة، يقول له الخصم:

---

(١) ضربة الكارامبولا في البلياردو هي التي يصيب فيها اللاعب أكثر من كرة واحدة.

«أراهنك ببيزو أنك لن تستطيع ذلك». يضحك الجميع. ويضحك هو أيضاً. ويوجه ضربة الكارامبولا ولا يفلح فيها. يدفع بيزو ويسألونه: «ما الذي أصابك، فقد كانت كارامبولا سهلة جداً؟». ويقول: «صحيح، ولكنني مازلت قلقاً من شيء قالته لي أمي هذا الصباح عن أمر خطير سيحدث في هذه القرية». يضحك الجميع منه، والذي كسب البيزو يعود إلي بيته، ويجد أمه ومعها ابنة عم أو حفيدة أو أي قريبة أخرى. فيقول سعيداً بالبيزو «كسبت هذا البيزو من داماسو بأسهل طريقة، لأنه أحمق». «ولماذا هو أحمق؟». فيقول لها: «لم يستطع إصابة كارامبولا سهلة جداً لأنه مضطرب بسبب قلق استيقظت به أمه اليوم بفكرة أن شيئاً خطيراً جداً سيحدث في هذه القرية».

عندئذ تقول له أمه: «لا تسخر من هواجس المسنين، لأنها تتحقق أحياناً». تسمعه القريبة الحاضرة، وتذهب لشراء لحم. تقول للجزار: «اعطني رطل لحم»، وبينما هو يقطع اللحم، تضيف قائلة: «من الأفضل أن تعطيني رطلين اثنين لأنهم يقولون إن شيئاً خطيراً سيحدث، ومن الخير أن نكون مستعدين». يبيعها الجزار اللحم وعندما تأتي سيدة أخري لتشتري رطل لحم، يقول لها: «خذي رطلين لأن الناس يأتون إلى هنا قائلين إن شيئاً خطيراً سيحدث، وهم يستعدون ويشترون مؤناً».

وتجيبه العجوز عندئذ: «لدي أبناء كثيرون، اسمع، من الأفضل أن تعطيني أربعة أرطال». تأخذ أربعة أرطال. وكيلا أطيل القصة أكثر، أقول إن الجزار يبيع اللحم كله خلال نصف ساعة، ويذبح بقرة أخرى، ويبيعها كلها، وتأخذ الإشاعة بالانتشار. وتأتي لحظة يكون جميع من في القرية بانتظار حدوث شيء. تُشل النشاطات كلها. وفجأة، في الساعة الثانية بعد الظهر، يشتد الحر كالعادة. فيقول أحدهم: «هل لاحظت شدة هذا الحر؟». «أجل، ولكن الحر شديد على الدوام في هذه القرية». الحر شديد إلى حدّ أنها قرية يرقع جميع الموسيقيين فيها آلاتهم الموسيقية بالقطران ولا يعزفون إلا في الظل لأنهم إذا عزفوا عليها تحت الشمس ستسقط منهم مفككة. «ومع ذلك ـ يقول أحدهم ـ لم يحدث قطّ أن كان الحر بهذه الشدة في مثل هذا الوقت». «بلى، ولكن ليس بهذه الشدة التي عليها الحر الآن». وفي القرية المقفرة، في الساحة المقفرة، يحط فجأة عصفور، وينتشر الخبر: «يوجد عصفور في الساحة». ويأتي الجميع مذعورين لرؤية العصفور.

«لكن العصافير تحط دوماً هنا أيها سادة». «أجل، ولكن ليس في مثل هذه الساعة». وتصل لحظة من التوتر الشديد يكون معها جميع

أهالي القرية متلهفين بقنوط للمغادرة دون أن تكون لديهم الشجاعة لفعل ذلك. فيصرخ أحدهم: «أنا رجل وافر الرجولة، وسوف أرحل». يوضب أثاثه، وأبناءه، وبهائمه، ويحشر كل شيء في عربة ويجتاز بها الشارع المركزي حيث القرية البائسة كلها تراه. وتأتي لحظة يقولون فيها: «إذا كان هذا قد تجرأ على الذهاب، فسوف نذهب نحن أيضاً». ويبدأ هجر القرية بكل معنى الكلمة. تُحمل الأمتعة، والبهائم، وكل شيء. ويقول أحد آخر من يغادرون القرية: «عسى ألا تقع المصيبة على كل ما بقي من بيتنا»، وعندئذ يحرق بيته، ويحرق آخرون بيوتاً أخرى. يهربون بذعر رهيب وحقيقي، كما لو أنه هروب من حرب، وبينهم تمضي السيدة صاحبة النبوءة وهي تقول: «لقد قلتُ لهم إن شيئاً خطيراً سوف يحدث فقالوا إنني مجنونة».

من أجلكم أنتم

كاراكاس، فنزويلا، ٢ آب ١٩٧٢

لأننا وحدنا الآن، جماعة أصدقاء، أريد أن أطلب منكم التواطؤ لمساعدتي على تحمل ذكرى هذه الأمسية، الأولى في حياتي التي جئت فيها بجسد حاضر وبكامل قواي العقلية لأقوم في آن واحد بشيئين من الأشياء التي عاهدت نفسي على عدم القيام بها أبداً: تلقي جائزة وإلقاء خطاب.

لقد ظننتُ على الدوام، خلافاً لوجهات نظر أخرى محترمة جداً، أننا نحن الكتّاب لم نوجد في الدنيا من أجل أن نُتوج، وكثيرون منكم يعرفون أن أي تكريم عام هو بداية تحنيط. لقد ظننت على الدوام، باختصار، أننا نحن الكتّاب لسنا كتّاباً بفعل مزايانا الخاصة، وإنما بفعل نكبة أننا لا نستطيع أن نكون شيئاً آخر، وأن عملنا المتوحد يجب ألا يستحق مكافأة أو امتيازاً أكبر من ذاك الذي يستحقه الحذّاء على صنع حذائه. ومع ذلك، لا تظنوا أنني جئت لأعتذر عن

مجيئي، ولست أحاول ازدراء التكريم الذي يقدم إليّ تحت الاسم الموالي لرجل عظيم ولا ينسى في آداب أميركا. بل على العكس، فقد جئت لأبتهج في هذا المشهد الاستعراضي، لأنني عرفتُ سبباً لكسر مبادئي وتكميم وساوسي: إنني هنا، أيها الأصدقاء، بكل بساطة بسبب محبتي القديمة والعنيدة لهذه الأرض التي كنتُ فيها ذات يوم شاباً سعيداً وبلا هوية، جئت كفعل محبة وتضامن مع أصدقائي الفنزوليين، الأصدقاء الكرماء، الرائعين ومحبي المزاح حتى الموت. من أجلهم جئت، أي من أجلكم أنتم.

وطن آخر مختلف

مدينة مكسيكو، ٢٢ تشرين الأول ١٩٨٢

أتلقى وسام نسر الأزتيك بشعورين اثنين لا يلتقيان معاً في العادة: شعور الفخر وشعور الامتنان. بهذه الطريقة يصاغ الرابط الحميم الذي ربطنا، زوجتي وأنا، بهذه البلاد التي اخترناها للعيش فيها منذ ما يزيد على عشرين عاماً. هنا ترعرع ابناي، هنا كتبتُ كتبي، هنا غرستُ أشجاري.

في سنوات الستينيّات، عندما لم أكن سعيداً، ولكنني كنت بلا هوية، قدّم لي أصدقاء مكسيكيون دعمهم وبثوا فيّ الجرأة على مواصلة الكتابة، في ظروف أستذكرها اليوم كما لو أنها فصل نسيتُ ضمه إلى ***مئة عام من العزلة***. ففي العقد الماضي، عندما حاول النجاح والدعاية المفرطة تعكير حياتي الخاصة، أتاحت لي رزانة المكسيكيين ولمستهم الأسطورية أن أجد الطمأنينة الداخلية والوقت المصان لأواصل دون راحة مهنة نجارتي القاسية. إنه ليس وطناً ثانياً

إذاً، وإنما هو وطن آخر مختلف منحني بلا شروط ودون أن ينازع وطني الحب والوفاء اللذين أكنهما له، والحنين الذي يطالبني به دون توقف وعلى الدوام.

ولكن الشرف الذي يُمنح لشخصي لا يهيج مشاعري فقط لأنه يأتي من البلاد التي أعيش وعشت فيها. بل إنني أشعر، يا سيدي الرئيس، أن هذا الامتياز الذي تقدمه حكومتكم يشرف أيضاً جميع المنفيين الذين لاذوا بحماية المكسيك. أعرف أنه ليس لي أية صفة تمثيلية، وأنه يمكن لحالتي أن تكون أي شيء باستثناء أن تكون حالة نمطية. وأعرف كذلك أن الظروف الحالية لإقامتي في المكسيك ليست هي الظروف نفسها لإقامة الأغلبية الساحقة من الملاحقين الذين وجدوا في هذا العقد الأخير ملجأ في المكسيك وفرته لهم العناية الإلهية. ولسوء الحظ، مازالت قائمة في قارتنا أنظمة طغاة قديمة ومجازر مجاورة تدفع إلى نفي أقل إرادية ومتعة من منفاي أنا. إنني أتكلم باسمي الشخصي، ولكنني أعرف أن كثيرين سيتعرفون على أنفسهم في كلماتي.

شكراً أيها السيد الرئيس لهذه الأبواب المفتوحة. وأرجوك ألا تُغلق أبداً، تحت أية ظروف.

عزلة أميركا اللاتينية

ستوكهولم، السويد، ٨ كانون الأول ١٩٨٢

أنطونيو بيغافيتا، بحار فلورنسي رافق ماجلان في الرحلة الأولى حول العالم، كتب لدى مروره في قارتنا الأمريكية الجنوبية مدونة إخبارية صارمة الدقة، ولكنها تبدو مع ذلك مغامرة من مغامرات المخيلة. روى أنه رأى خنازير سرتها في ظهرها وطائراً بلا قوائم تحضن أنثاه بيوضها على ظهر الذكر، وطيوراً أخرى تشبه البجع بلا ألسنة ومناقيرها تبدو أشبه بملعقة. روى أنه رأى حيواناً مسخاً له رأس وأذني بغل، وجسم جمل، وقوائم غزال، وصهيل حصان. وروى أنهم وضعوا مرآة قبالة وجه أول وطني التقوا به في منطقة باتاغونيا، وأن ذلك المارد الهائج فقد عقله خوفاً من صورته بالذات.

ذلك الكتاب الموجز والفاتن، والذي تُلمح فيه بذور رواياتنا اليوم، ليس بأي حال الشهادة الأشد إذهالاً لواقعنا في تلك الأزمنة.

فكتب أخبار بلاد الهند أورثتنا شهادات أخرى لا حصر لها. فإلدورادو ـ بلدنا الوهمي واسع الشهرة ـ رُسم في خرائط عديدة ولسنوات طويلة، مع تبديل لموقعه وشكله وفق تخيلات رسامي الخرائط. وفي البحث عن ينبوع الخلود، ارتاد الملاح الأسطوري ألبار نونيث كابيثا دي باكا شمالي المكسيك، طوال ثمانية أعوام، في حملة غريبة أكل أفرادها بعضهم بعضاً ولم يعد سوى خمسة أشخاص من الستمئة الذين أبحروا معه. وأحد الأسرار الكثيرة التي لم تكشف قطّ هو لغز الإحدى عشرة ألف بغلة المحملة كل واحدة منها بمئة رطل من الذهب، والتي خرجت ذات يوم من كوسكو لدفع فدية الإنكا أتاوالبا ولم تصل قط إلى هدفها. وفي ما بعد، خلال العصر الاستعماري، كانت تباع في كارتاخينا دي إندياس دجاجات تُربى في أراضي الطمي النهري، ويُعثر في قوانصها على حبيبات من الذهب. هذيان مؤسسينا ذاك بالذهب لاحقنا حتى زمن قريب. ففي القرن الماضي توصلت بعثة ألمانية مكلفة بدراسة بناء خط حديدي بين المحيطين في برزخ بنما إلى أن السكك يجب ألا تُصنع من الحديد، وهو مادة نادرة في المنطقة، وإنما يجب أن تُصنع من الذهب.

الاستقلال عن السيطرة الإسبانية لم ينقذنا من الجنون. فالجنرال أنطونيو لوبيث دي سانتا آنا، والذي كان دكتاتوراً على المكسيك ثلاث مرات، أقام مراسم جنائزية ضخمة لساقه اليمنى التي فقدها في ما سمي بحرب الحلويات. والجنرال غابرييل غارسيا مورينو حكم الإكوادور طوال ستة عشر عاماً كملك مطلق، وجرى السهر على جثمانه، بزي المراسم العسكري وبدرع الأوسمة، وهو جالس على كرسي الرئاسة. والجنرال ماكسيمليانو هيرناندث مارتينيث، الطاغية الحكيم الإلهي في السلفادور الذي أمر بإبادة ثلاثين ألف فلاح في مجزرة همجية، اخترع بندولاً لتحري ما إذا كانت الأطعمة التي تقدم إليه مسمومة، وأمر بأن تغطى مصابيح الإنارة العامة بورق أحمر لمكافحة وباء حمى قرمزية. وتمثال الجنرال فرانثيسكو موراثان المنتصب في ميدان كيغوثيغالبا الكبير، هو في الواقع تمثال للماريشال «نيي» جرى ابتياعه من مستودع تماثيل مستعملة.

منذ أحد عشر عاماً، أضاء أحد أبرز شعراء عصرنا، التشيلي بابلو نيرودا، أجواء هذا المكان بكلماته. ومنذ ذلك الحين، وباندفاع أكبر من أي وقت مضى، اقتحمت الضمائر الطيبة في أوروبا، وكذلك الضمائر الخبيثة في بعض الأحيان، أخبار أميركا اللاتينية

الشبحية، موطن الرجال المهوسين والنساء التاريخيات، ممن يختلط عنادهم غير المحدود بالأسطورة. لم نحظ ببرهة طمأنينة واحدة. فرئيس واعد متحصن بقصر رئاسته الذي يحترق، مات وهو يقاتل وحيداً في مواجهة جيش كامل، وكارثتان جويتان مريبتان لم ينكشف غموضهما، حصدتا حياة رئيس آخر كريم القلب، وضابط عسكري ديمقراطي أعاد الكرامة إلى شعبه.

لقد وقعت خمس حروب وسبعة عشر انقلاباً، وبرز دكتاتور شيطاني أنجز باسم الرب أول إبادة عرقية في أميركا اللاتينية في زماننا. وفي أثناء ذلك، كان عشرون مليون طفل أمريكي لاتيني يموتون قبل أن يكملوا السنة الثانية من العمر، وهو ما يزيد على عدد من ولدوا في أوروبا منذ العام ١٩٧٠. ومن اختفت آثارهم لأسباب تتعلق بالقمع يبلغون حوالي مئة وعشرين ألفاً، وهذا يماثل اليوم أن لا يُعرف أين هم جميع سكان مدينة أوبسالا السويدية. نساء حوامل كثيرات اعتقلن وأنجبن أبناءهن في سجون أرجنتينية، ولكن لا يزال مجهولاً مكان وهوية أولئك الأبناء الذين قدمتهم السلطات العسكرية للتبني بصورة سرية أو أدخلوا ملاجئ أيتام. ولأن الناس لا يريدون أن تستمر الأمور على هذا النحو، لقي حوالي مئتي ألف امرأة

ورجل حتفهم في كل أنحاء القارة، وأكثر من مئة ألف قضوا نحبهم في ثلاثة بلدان صغيرة وعنيدة في أميركا الوسطى: نيكاراغوا، والسلفادور، وغواتيمالا. ولو أن هذا حدث في الولايات المتحدة، فإن العدد التناسبي سيكون مليوناً وستمئة ميتة عنيفة خلال أربع سنوات.

من تشيلي، تلك البلاد المضيافة، هرب مليون شخص: عشرة بالمئة من سكانها. وأوروغواي، البلد الصغير جداً، الذي يبلغ عدد سكانه مليونين ونصف مليون نسمة ويُعتبر أكثر بلدان القارة تحضراً، أضاع في المنافي واحداً من كل خمسة من مواطنيه. والحرب الأهلية في السلفادور تسببت، منذ العام ١٩٧٠، بلاجئ كل عشرين دقيقة تقريباً. هذا البلد الذي كان بإمكانه أن يستقبل كافة المنفيين واللاجئين قسراً في أميركا اللاتينية، يزيد عدد سكانه على عدد سكان النرويج.

أجرؤ على التفكير في أن هذا الواقع غير المألوف، وليس التعبير الأدبي عنه، هو ما استحق اهتمام الأكاديمية السويدية للآداب هذا العام. واقع ليس من ورق، وإنما هو يعيش معنا ويحسم كل لحظة من مِيتاتنا اليومية التي لا حصر لها، ويغذي ينبوع إبداع لا يرتوي،

مترع بالتعاسة والجمال، ليس هذا الكولومبي التائه والمفعم بالحنين سوى رقم آخر فيه أصابه الحظ. فجميع مخلوقات ذلك الواقع المتجاوز للحدود، من شعراء ومتسولين، ومحاربين وأوغاد، كان علينا جميعنا أن نطلب القليل جداً من المخيلة، لأن التحدي الكبير بالنسبة إلينا هو في قصور الوسائل المعهودة في جعل حياتنا معقولة. هذه هي، أيها الأصدقاء، عقدة عزلتنا.

وإذا كانت هذه الصعوبات تبلبلنا نحن الذين نشكل جوهرها، فليس من الصعب فهم أن المواهب العقلانية في هذا الجانب من العالم، والمفتونة بتأمل ثقافتها، لم تجد منهجاً نافعاً لتفسيرنا. من المفهوم أنهم يصرون على قياسنا بالمقياس نفسه الذي يقيسون به أنفسهم، دون أن يتذكروا أن أضرار الحياة ليست متساوية للجميع، وأن البحث عن الهوية الخاصة شاق ودامٍ بالنسبة إلينا مثلما كانت بالنسبة إليهم. إن تفسير واقعنا بمعايير غريبة عنا لا يساهم إلا في جعلنا مجهولين أكثر، وأقل حرية، وأكثر عزلة. ربما يمكن لأوروبا الموقرة أن تكون أكثر تفهماً لو حاولت أن ترانا في ماضيها نفسه. لو أنها تتذكر أن لندن احتاجت لثلاثمئة عام كي تبني سورها الأول ولثلاثمئة عام أخرى ليكون لها أسقف، وأن روما تخبطت في ظلمات

عدم اليقين طوال عشرين قرناً إلى أن تمكن ملكٌ إتروبي من توطينها في التاريخ، وحتى القرن الخامس عشر كان السويسريون المسالمون اليوم، والذين يفتنوننا بأجبانهم الأليفة وساعاتهم المتمكنة، يُدمون أوروبا بجنود الحظ. وحتى في أوج عصر النهضة، قام اثنا عشر ألف مرتزق ألماني مأجورين في جيوش إمبراطورية بنهب روما وتهديمها، وذبحوا ثمانية آلاف من سكانها.

لستُ أنوي تجسيد أوهام تونيو كروجر الذي كان حلمه بتوحيد شمال عفيف وجنوب مشبوب العاطفة يستثير حماسة توماس مان قبل ثلاثة وخمسين عاماً في هذا المكان. ولكنني أظن أن الأوروبيين ذوي الروح التصنيفية ـ من يناضلون هنا أيضاً من أجل وطن كبير أكثر إنسانية وعدالة ـ يمكن لهم أن يساعدونا بصورة أفضل إذا ما راجعوا بعمق طريقتهم في النظر إلينا. فالتضامن مع أحلامنا لا يجعلنا نشعر بأننا أقل عزلة ما لم يتبلور في أفعال دعم شرعي لشعوب تحمل حلم امتلاك حياة خاصة في توزيع العالم.

أميركا اللاتينية لا تريد أن تكون، وليس عليها أن تكون، فيل شطرنج بلا إرادة، ولا أوهام لديها في أن تتحول مقاصدها بالاستقلال والأصالة إلى تطلع غربي. ومع ذلك، فإن تقدم الملاحة الذي اختصر

المسافات بين قارتنا الأمريكية وأوروبا يبدو أنه زاد، بالمقابل، من تباعدنا الثقافي. لماذا يُسمح لنا دون تحفظ بهذه الأصالة في ميدان الأدب بينما تُنكر علينا بكل أشكال عدم الثقة محاولاتنا بالغة الصعوبة للتغيير الاجتماعي؟ لماذا التفكير في أن العدالة الاجتماعية التي يحاول الأوروبيون المتقدمون فرضها في بلدانهم لا يمكن أن تكون كذلك هدفاً أمريكياً لاتينياً بمناهج مختلفة في ظروف مختلفة؟ لا: العنف والألم المفرطان في تاريخنا هما النتيجة لمظالم قرون ومرارات لا تحصى، وليست مؤامرة تحاك على بعد ثلاثة آلاف فرسخ عن بيتنا. ولكن قادة ومفكرين أوروبيين كثيرين اعتقدوا، بصبيانية الأجداد الذين نسوا ممارسات شبابهم الجنونية المثمرة، أنه لا وجود لقدر آخر سوى العيش تحت رحمة سَيِّدَي العالم الأكبرين. هذا هو، أيها الأصدقاء، حجم عزلتنا. ومع ذلك، وفي مواجهة الاضطهاد والنهب والهجران، ردّنا هو العيش. فلا الفيضانات ولا الأوبئة، ولا المجاعات أو الكوارث، ولا حتى الحروب الأبدية على امتداد قرون وقرون توصلت إلى تقليص التفوق العنيد للحياة على الموت.

وهو تفوق يتعاظم ويتسارع: في كل عام هنالك أربعة وسبعون مليون ولادة زائدة عن عدد الوفيات، إنها كمية من الأحياء الجدد

تكفـي لأن تزيـد في كـل عـام عـدد سـكان نيويـورك سبع مـرات. ومعظمهـم يولـدون في البلـدان الأقـل مـوارد، ومنهـا بـالطبع بلـدان أميركـا اللاتينيـة. وبالمقابـل، توصـلت البلـدان الأكثـر ازدهـاراً إلى مراكمـة قـدرة تـدمير تكفـي لأن تبيـد مئـة مـرة لـيس كـل الكائنـات البشرية الـتي وجـدت حتـى الآن، وإنما مجمـل الكائنـات الحيـة الـتي مرت على كوكب المحن هذا.

في يوم مثل هذا اليوم، قـال معلمـي ولـيم فـوكنر في هـذا المكـان: «أرفض تقبّل نهاية الإنسان». ولـستُ أجـد نفسي جـديراً بـأن أشـغل هذا المكان الذي كان له لولا وعيي الكامل بـأن الكارثـة الهـائلـة الـتي رفض تقبلها منذ اثـنين وثلاثـين عامـاً هـي الآن، للمـرة الأولى، منـذ أصول البشرية، ليست أكثر من احتمـال علمـي. وحيـال هـذا الـواقـع المباغـت الـذي كـان يمكـن لـه أن يبـدو عـبر زمـن البـشرية كلـه أشبـه بيوتوبيا، نشعر نحن مختلقي الخرافات الـذين نـصدق كـل شـيء، بـأن لنـا الحـق في تـصديق أن الوقـت لم يفـت بعـد للانطـلاق في إبـداع اليوتوبيـا المعاكـسة. يوتوبيـا حيـاة جديـدة وسـاحقة، حيـث لا يمكـن لأحد أن يقرر عن الآخرين حتى طريقة موتهم، وحيث يكون الحب صحيحاً حقاً وتكون السعادة ممكنة، وحيث تجد، أخيراً وإلى الأبـد، السلالاتُ المحكومة بمئة عام من العزلة فرصة ثانية على الأرض.

نخب الشعر

ستوكهولم، السويد، ١٠ كانون الأول ١٩٨٢

أتقدم بالشكر من أكاديمية الآداب السويدية التي خصتني بجائزة تضعني إلى جانب كثيرين ممن وجَّهوا وأغنوا سنوات حياتي كقارئ ومحتفٍ يومي بهذا الهذيان غير القابل للاستئناف الذي تمثله مهنة الكتابة. إن أسماءهم وأعمالهم إليَّ أو تحضرني اليوم كظلال وصاية، ولكنها تحضر أيضاً كالتزام، وهو التزام شديد الوطأة في الغالب، يُكتسب بهذا الشرف. إنه شرف قاسٍ بدا لي نيلهم إياه عدالة بسيطة، أما نيلي له فأفهمه كدرس آخر من تلك الدروس التي يفاجئنا بها القدر عادة، وتكشف بصورة أكثر جلاءً شرطنا كدمى لقدر لا يمكن حل ألغازه، ويكون ثوابها الوحيد والمحزن، في معظم الأحيان، عدم التفهم والنسيان.

ولهذا يكاد يكون طبيعياً أن أسأل نفسي عن الدعامة الثابتة في أعمالي، هناك في تلك الخلفية السرية التي تختلط فيها عادة أكثر

الحقائق جوهرية في تكوين هويتنا، وما الذي يمكن أن يكون قد لفت بصورة مثيرٍة للشبهة انتباه هذه المحكمة ذات الحكام شديدي الصرامة. أعترفُ دون تواضع زائف أنه لم يكن من السهل علي العثور على السبب، ولكنني أريد أن أصدق أنه السبب نفسه الذي طالما رغبتُ فيه، أريد أن أصدق، أيها الأصدقاء، أن ذلك السبب قد كان، مرة أخرى، تكريماً يقدم للشعر. للشعر الذي بفضله تتلقى جردة السفن المرهقة التي عددها هوميروس العجوز في إلياذته زيارة رياح جديدة تدفعها إلى الإبحار برشاقتها اللازمانية والهذيانية. الشعر الذي يغذي، بسقالات ثلاثيات دانتي النحيلة، آلية العصور الوسطى الكثيفة والضخمة كلها. الشعر الذي ينتشل أمريكانا بكلية إعجازية في «مرتفعات ماتشو بيتشو» لبابلو نيرودا العظيم، أعظم العظماء، حيث يُقَطِّر حزنه الألفي القديم أفضل أحلامنا التي بلا مخرج. الشعر، في نهاية الأمر، هذه الطاقة السرية للحياة اليومية التي تطهو الحمص في المطبخ وتنقل عدوى الحب وتكرر الصور في المرايا.

في كل سطر أكتبه أحاول على الدوام، بكثير أو قليل من التوفيق، أن أستحضر أرواح الشعر المتهربة، وأحاول أن أترك في كل كلمة شهادة عن إيماني بقدراته التنبؤية، وانتصاره الدائم في

مواجهة سلطات الموت الصماء. إنني أفهم الجائزة التي تلقيتها للتو، وبكل تواضع، على أنها كشف مواساة عن أن محاولتي لم تكن بلا جدوى. ومن أجل هذا أدعوكم جميعاً لرفع نخبٍ على شرفِ ما قال شاعرٌ عظيم من أميركانا، لويس كاردوثا آي أراغون، إنّه الدليل الوحيد الملموس على وجود الإنسان: الشعر.

شكراً جزيلاً

كلمات لألفية جديدة

هافانا، كوبا، ٢٩ تشرين الثاني ١٩٨٥

لطالما تساءلت عن جدوى لقاءات المثقفين. ففضلاً عن القلة القليلة من اللقاءات التي كانت ذات مغزى تاريخي حقيقي في زمننا، مثل ذلك اللقاء الذي جرى في مدينة بلنسيا بإسبانيا عام ١٩٣٧، فإن معظم اللقاءات لا تعدو كونها مجرد تسليات صالون. ومع ذلك، نفاجأ بكثرة ما يعقد منها، وفي كل مرة بأعداد أكبر، وحضور أكثر وبتكاليف تزيد من حدّة الأزمة العالمية. يؤكد حائزٌ على جائزة نوبل أنه تلقى خلال ما مضى من هذا العام قرابة ألفي دعوة إلى مؤتمرات كتّاب، ومهرجانات فنون، ومناظرات وندوات من كل نوع: أكثر من ثلاث دعوات يومياً إلى أمكنة موزعة على امتداد العالم بأسره. فهنالك مؤتمرات تأسيسية، بتزايد دائم وبكافة النفقات مدفوعة، تجري اجتماعاتها كل عام في واحد وثلاثين مكاناً مختلفاً، بعضها أمكنة مرغوبة جداً مثل روما أو أديليدا، وبعضها

مفاجئة جداً مثل ستافنجر أو يفيردن، وبعضها يبدو أقرب إلى تحديات الكلمات المتقاطعة، مثل بوليفونيكس أو كنوك. إنها كثيرة في نهاية المطاف، وحول موضوعات كثيرة ومتنوعة، حتى إنه عُقد في العام الماضي في قصر مويدين في أمستردام، مؤتمر عالمي لتنظيم مؤتمرات للشعر. ليس من المستغرب أنه يمكن لمثقف مجامل أن يولد في مؤتمر ويواصل الترعرع والنضوج في مؤتمرات متتالية، دون أي توقف سوى ما يتطلبه الانتقال من مؤتمر إلى آخر، حتى يموت في شيخوخة وادعة في مؤتمره الأخير.

ومع ذلك، ربما يكون الوقت قد فات لمحاولة وقف هذه العادة التي نجرجرها نحن حرفيو الثقافة عبر التاريخ مذ كسب بندارو[1] الألعاب الأولمبية. كانت تلك أزمنة يمضي بها الجسد والروح بتوافق أفضل مما هما الآن، بحيث كانت أصوات الشعراء الملحميين تلقى التقدير في المدرجات كما هي مآثر الرياضيين. ولا بد أن الرومان قد لاحظوا، منذ العام ٥٠٨ قبل الميلاد، أن سوء استغلال الألعاب هو خطرهم الأكبر. ذلك أنهم أسسوا في تلك السنوات الألعاب المئوية، وبعد ذلك الألعاب التيرنتينيه، وكانت تعقد بصورة دورية مثالية لهذه الأيام: مرة كل مئة أو كل مئة وثلاثة أعوام.

---

(١) بندارو Pindaro: شاعر غنائي إغريقي (٥١٨ ــ ٤٣٨ قبل الميلاد)، من أفضل قصائده تلك التي يتغنى فيها بالانتصارات في الألعاب الأولمبية الهيلينية.

وفي العصور الوسطى أيضاً كانت مؤتمرات الثقافة هي مناظرات ومنافسات الشعراء المغنين الشعبين، وبعد ذلك منافسات شعراء التروبادور، وبعد ذلك مناظرات ومباريات لاعبي الخفة والتروبادور معاً، ومع هؤلاء بدأ تقليد مازلنا نعاني منه بكثرة: تبدأ اللقاءات بألعاب وتنتهي بمماحكات. ولكنها وصلت إلى حدود من الأبهة أنها كانت تُفتتح، في زمن لويس الرابع عشر، بمأدبة هائلة، وذكري لها هنا لا يهدف ـ أقسم بذلك ـ إلى الإيحاء بوليمة ساهرة. كان يُقدم في تلك المأدبة تسعة عشر ثوراً وثلاثة آلاف قالب حلوى وأكثر من مئتي برميل نبيذ.

وكان عيد الزهور في تولوز هو ذروة حفلات الشعراء المغنين الشعبين وشعراء التروبادو تلك، وهو أقدم مهرجانات الشعر وأكثرها مواظبة ـ إنه نموذج في الديمومة ـ، فقد تأسس منذ ستمئة وستين عاماً. ومؤسسته هي كليمنسا إسورا، وكانت امرأة ذكية، مبادرة وجميلة، وعيبها الوحيد على ما يبدو هو أنه لم يكن لها وجود قط: ربما كانت محض اختلاق من سبعة شعراء تروبادو أسسوا المهرجان بجهد كبير للحيلولة دون انقراض شعر البروفانس. ولكن عدم وجودها بحد ذاته هو دليل آخر على قدرة الشعر

الخلاقة، إذ يوجد في تولوز قبر كليمنسا إسورا في كنيسة دورادا، وهناك شارع باسمها ونصب لذكراها.

بعد قول هذا، لنا الحق بالتساؤل: ما الذي نفعله هنا؟ وبخاصة: ما الذي أفعله هنا فوق منصة الشرف هذه، أنا الذي اعتبرت الخطابات على الدوام أشد أشكال الالتزام البشري رهبة؟ لست أتجرأ على التلميح إلى إجابة، ولكنني أتجرأ على التلميح إلى اقتراح: إننا هنا في محاولة لجعل أي لقاء مثقفين يصل إلى ما لم تصل إليه معظم اللقاءات: الجدوى العملية والاستمرارية.

ومن أجل البدء، هنالك أمر يميز هذا اللقاء، ففضلاً عن الكتّاب والرسامين والموسيقيين والسوسيولوجيين والمؤرخين، توجد جماعة من العلماء المشهورين. وهذا يعني أننا تجرأنا على تحدي المساكنة المرهوبة بين العلوم والآداب؛ وأن نمزج في بوتقة واحدة أنفسنا نحن من لا نزال نثق ببصيرة النبوءات مع أولئك الذين لا يؤمنون إلا بالحقائق المثبتة: إنها الخصومة القديمة بين الإلهام والتجربة، بين الغريزة والعقل. سان جون بيرس، في خطابه التاريخي عند تلقيه جائزة نوبل، قوض هذه المعضلة الزائفة بجملة واحدة، إذ قال: «لابد من إجلال نزاهة الفكر، سواء لدى العالم أم الشاعر». وهنا

على الأقل لم يعودوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً كإخوة أعداء، لأن تساؤل كليهما هو نفسه بشأن هوة واحدة.

فكرة أن العلم يخص العلماء وحدهم هي فكرة مضادة للعلم بقدر ما هو مضاد للشعر الإدعاء بأن الشعر يخص الشعراء وحدهم. وبهذا المعنى فإن تسمية اليونسكو ـ منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ـ يجرجر معه عبر العالم خطأ جسيماً، بافتراضه كواقع أن الأمور الثلاثة مختلفة، في حين أنها كلها الشيء نفسه في الواقع. ذلك أن الثقافة هي القوة المجمِّعة للإبداع: الاستفادة الاجتماعية من الذكاء البشري. أو كما قال جاك لانغ دون مزيد من اللف والدوران: «الثقافة هي كل شيء». أهلاً وسهلاً بكم إذاً، أهلاً بكم جميعاً معاً في بيت الجميع.

لست أجرؤ على اقتراح شيء أكثر من بعض الأفكار للتأمل في هذه الأيام الثلاثة من الخلوة الروحية. وأتجرأ على تذكيركم، في المقام الأول، بأمر ربما تتذكرونه جيداً: إن أي قرار متوسط الأجل يُتخذ في هذا الوقت من أواخر القرن هو قرار للقرن الحادي والعشرين. ومع ذلك، فإننا في أميركا اللاتينية والكاريبي نقترب منه بشعور محزن بأننا قد قفزنا عن القرن العشرين: لقد عانيناه دون أن

نعيشه. نصف العالم سيحتفل بفجر العام ٢٠٠١ باعتباره نهاية ألفية، بينما نحن نكاد لا نلمح منافع الثورة الصناعية. والأطفال الذين هم اليوم في المدرسة الابتدائية يستعدون لتوجيه مصيرنا في القرن المقبل، مازالوا محكومين بالعد على أصابع أيديهم، مثل حسابيي العصور المغرقة في القدم، بينما هنالك حواسيب قادرة على مئة ألف عملية حسابية في الثانية. وقد فقدنا بالمقابل، خلال مئة عام، أفضل فضائل القرن التاسع عشر الإنسانية: المثالية المحمومة وأسبقية المشاعر: الخوف من الحب.

في لحظة ما من الألفية القادمة سيوصل علم الجينات إلى استشفاف خلود الحياة البشرية كحقيقة محتملة، ويحلم الذكاء الإلكتروني بالمغامرة الخيالية بكتابة إلياذة جديدة، وفي بيتهما على القمر سيكون هنالك عاشقان من أوهايو أو من أوكرانيا، يثقل عليهما الحنين، يتبادلان الحب في حدائق من بلور تحت ضوء الأرض. أما أميركا اللاتينية والكاريبي بالمقابل، فيهلكان محكومين بعبودية الحاضر: الاضطرابات الأرضية، والكوارث السياسية والاجتماعية، وهموم الحياة اليومية المباشرة، وكل أنواع التبعية، والفقر والظلم، لم تترك لنا كلها وقتاً لتمثل دروس الماضي ولا

التفكير في المستقبل. وقد قدم الكاتب الأرجنتيني رودولفو تيرَّغون ملخصاً لهذه المأساة: «إننا نستخدم أشعة إكس وأجهزة الترانزيستور، والأنابيب المهبطية، والذاكرات الإلكترونية، ولكننا لم ندمج أسس الثقافة المعاصرة في ثقافتنا الخاصة».

لحسن الحظ أن الاحتياطي الحاسم لأميركا اللاتينية والكاريبي هو طاقة قادرة على تحريك العالم: إنه الذاكرة الخطرة لشعوبنا. وهي تراث ثقافي هائل سابق لكل مادة أولية، ومادة أولية متعددة المظاهر ترافق كل خطوة من خطوات حيواتنا. إنها ثقافة مقاومة يُعَبَّر عنها في مخابئ اللغة، في العذارى الخلاسيات ــ شفيعاتنا الحِرَافِيات ــ، معجزات الشعب الحقيقية في مواجهة السلطة الكنسية الاستعمارية. إنها ثقافة تضامن، يُعَبَّر عنها في الشطط الإجرامي لطبيعتنا الجامحة، أو في انتفاض الشعوب لأجل هويتها وسيادتها. إنها ثقافة احتجاج في ملامح وجوه السكان الأصليين التي تُرى في ملائكة المشغولات الحِرِفِية في معابدنا، أو في موسيقى الثلوج الأبدية التي تحاول أن تطهر سلطات الموت الصماء بالحنين. إنها ثقافة حياة يومية يُعبَّر عنها في مخيلة المطبخ، وطريقة الملبس، وفي الشعوذة المبدعة، وفي طقوس الحب الحميمة. إنها ثقافة احتفال، وتجاوز، وغموض، تمزق قميص

الواقع الجبري وتصالح في النهاية بين العقلانية والتخيل، الكلمة والإيماءة، وتُثبتُ عملياً أنه لا وجود لمفهوم إلا وتراجعه الحياة عاجلاً أو آجلاً. هذه هي قوة تخلفنا. إنها طاقة تجديد وجمال تنتمي إلينا بالكامل وبها نكفي أنفسنا بأنفسنا، ولا يمكن أن يُروضها النهم الإمبراطوري، ولا وحشية الطاغية الداخلي، ولا حتى مخاوفنا بعيدة العهد من ترجمة أشد أحلامنا خفية إلى كلمات. حتى الثورة نفسها هي عمل ثقافي، فهي التعبير الشامل عن ميل وقدرة خلاقة يسوغان ويطلبان منا جميعاً ثقة عميقة بالمستقبل.

سيكون هذا اللقاء شيئاً أكثر من مجرد واحد آخر من اللقاءات التي تقام يومياً في العالم إذا توصلنا، على الأقل، إلى استشفاف طرق أخرى في التنظيم العملي لتصريف طوفان إبداعية شعوبنا الجارف، وحققنا التبادل الحقيقي والتضامن بين مبدعينا، واستمرارية تاريخية وانتفاع اجتماعي أكثر اتساعاً وعمقاً بالإبداع الفكري، أشد المهن الإنسانية إبهاماً وتوحداً. سيكون، في نهاية الأمر، إضافة حاسمة للتصميم السياسي غير القابل للتأجيل من أجل القفز عن خمسة قرون خاصة بغيرنا والدخول بخطى واثقة، بأفق ألفي، إلى الألفية الوشيكة.

كارثة ديموقليس

إكستابا - زيهواتانيخو، المكسيك، ٦ آب ١٩٨٦

اجتماع القمة الثانية لمجموعة الستة

بعد دقيقة واحدة من الانفجار الأخير، سيكون أكثر من نصف البشر قد قضوا نحبهم، وسيَهزم غبارُ القارات المشتعلة ودخانها ضوءَ الشمس، وسيعود الظلام المطبق ليخيم على العالم. شتاء أمطار برتقالية وأعاصير جليدية ستقلب زمن المحيطات وتعكس مسار الأنهار التي ستكون أسماكها قد نفقت ظمأً في المياه المتقدة، ولن تجد طيورها السماء. ستغطي الثلوج الأبدية قفر الصحراء الكبرى، وستختفي منطقة الأمازون الشاسعة عن وجه الأرض المدمَّر بوابل البَرَد، وسيتراجع عصر الروك وزرع القلوب إلي طفولته الجليدية. أما الكائنات البشرية القليلة التي ستنجو من ذلك الرعب، ومن نالوا امتياز التواجد في ملجأ آمن في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم اثنين الكارثة العظمى المشؤوم، سيكونون قد نجوا بحياتهم كي يموتوا بعد ذلك من هول ذكرياتهم وحسب. سيكون الخلق قد انتهى. وفي

فوضى الرطوبة النهائي والليل الأبدي، ستكون الصراصير هي الأثر الوحيد المتبقي مما كانته الحياة.

السادة الرؤساء، السادة رؤساء الحكومات، أيتها الصديقات، أيها الأصدقاء:

ليس هذا انتحال سيئ لهذيان يوحنا في منفاه ببطمس[1]، وإنما هو الرؤية المسبقة لكارثة كونية قد تقع في هذه اللحظة بالذات: انفجار ـ مُوَجَّه أو صُدَفي ـ لجزء ضئيل فقط من الترسانة النووية التي تنام بإحدى عينيها وترصد بالعين الأخرى في مستودعات أسلحة القوى العظمى.

هكذا هي الأمور، فاليوم، السادس من آب، يوجد أكثر من خمسين ألف رأس نووي جاهزة للاستخدام. وهذا يعني، بالمفاهيم المتداولة، أن كل كائن بشري، دون استثناء الأطفال، يجلس علي برميل فيه حوالي أربعة أطنان من الديناميت يمكن لانفجارها الكامل أن يمحو كل أثر للحياة عن الأرض اثنتي عشرة مرة. إن القدرة التدميرية لهذا التهديد المريع، المسلط على رؤوسنا كأنه انفجار ديموقليس، تطرح الإمكانية النظرية بإعطاب أربعة كواكب أخرى

(١) بطمس Patmos: الجزيرة التي كتب فيها يوحنا اللاهوتي رؤياه.

فضلاً عن تلك التي تدور حول الشمس، والتأثير على توازن المنظومة الشمسية. لا وجود لعلم أو فن أو صناعة ضاعفت نفسها عدة أضعاف مثل الصناعة الذرية منذ نشأتها، قبل إحدى وأربعين سنة، ولا وجود لإبداع آخر من إبداعات العبقرية الإنسانية حازت مثل هذه القدرة على حسم مصير العالم.

العزاء الوحيد في هذه التبسيطات المرعبة ـ إن كانت تنفعنا في شيء ـ هو إثبات أن الحفاظ على الحياة الإنسانية على الأرض مازال أرخص كلفة بكثير من الطاعون النووي. فمجرد وجود الكارثة الرهيبة الحبيسة في مخازن الموت في الدول الأغنى، يهدر إمكانيات الوصول إلى حياة أفضل للجميع.

ففي مجال رعاية الطفولة، على سبيل المثال، يشكل هذا حقيقة حسابية أولية. فقد وضعت اليونيسيف في العام ١٩٨١ برنامجاً لحل المشكلات الأساسية لخمسمئة مليون من أشد أطفال العالم فقراً. ويتضمن البرنامج تقديم الرعاية الصحية الأولية، والتعليم الأساسي، وتحسين ظروف النظافة، والتزود بمياه الشرب والأغذية. وكلفة كل هذا الذي يبدو حلماً مستحيلاً مئة ألف مليون دولار. ومع ذلك، هذا المبلغ يكاد لا يعادل كلفة قاذفة إستراتيجية من طراز (ب ـ ١ ب)، وأقل من

كلفة سبعة آلاف صاروخ كروزر، ستوظف حكومة الولايات المتحدة لإنتاجها واحداً وعشرين ألفاً ومئتي مليون دولار.

وفي مجال الصحة مثلاً؛ بكلفة ١٠ حاملات طائرات من نوع نيميتز، من الحاملات الخمس عشرة التي ستصنعها الولايات المتحدة قبل العام ٢٠٠٠، يمكن تحقيق برنامج وقائي يحمي، خلال السنوات الأربع عشرة القادمة أكثر من مليار شخص من مرض الملاريا، ويحول دون موت أكثر من أربعة عشر مليون طفل في أفريقيا وحدها.

في مجال التغذية، على سبيل المثال: كان هنالك في العالم العام الماضي، استناداً إلى إحصاءات منظمة (الفاو)، حوالي خمسمئة وخمسة وسبعين مليون شخص يعانون الجوع. ولم يكن تأمين حاجتهم الضرورية من السعيرات الحرارية يكلف إلا أقل من مئة وتسعة وأربعين صاروخاً من نوع (إم إكس)، من الصواريخ المئتين وثلاثة وعشرين التي ستُنصب في أوروبا الغربية. وبكلفة سبعة وعشرين صاروخاً منها يمكن شراء المعدات الزراعية اللازمة لكي تنتج البلدان الفقيرة كفايتها الغذائية خلال السنوات الأربع القادمة. وكلفة هذا البرنامج الغذائي لا تصل إلى تُسع الميزانية العسكرية السوفييتية للعام ١٩٨٢

في مجال التعليم، على سبيل المثال: بقيمة غواصتين ذريتين من نوع «تريدنت» التي تخطط حكومة الولايات المتحدة الحالية لصنع خمس وعشرين منها، أو بعدد مماثل من غواصات «تيفون» التي يبنيها الاتحاد السوفييتي، يمكن لنا أخيراً أن نواجه شبح الأمية في العالم. ومن جهة أخرى، فإن بناء المدارس وتأهيل المعلمين اللازمين للعالم الثالث من أجل تغطية احتياجات التعليم الإضافية خلال السنوات العشر القادمة، يمكن تغطية نفقاته كلها بما يكلفه صنع مئتين وخمسة وأربعين صاروخاً من نوع «تريدنت ٢»، ويزيد بعد ذلك أربعمئة وتسعة عشر صاروخاً من أجل تطوير التعليم في السنوات الخمس عشر التالية.

ويمكن القول، أخيراً، إن إلغاء ديون العالم الثالث الخارجية كلها، ومساعدته على التعافي اقتصادياً خلال عشر سنوات، يكلف ما يزيد قليلاً عن سدس نفقات العالم العسكرية خلال الفترة ذاتها. ومع ذلك، وحيال هذا الهدر الاقتصادي الهائل، فإن أكثر ما يثير القلق والأسى هو الهدر البشري: فالصناعة الحربية تأسر أكبر عدد من العلماء، وهو عدد لم يجتمع مثله لإنجاز أية مهمة خلال تاريخ البشرية كله. والمكان الطبيعي لهؤلاء العلماء ليس هناك، وإنما هنا،

على هذه المائدة، وتحريرهم واجب لا بد منه، كي يساعدونا في مجالات التعليم والعدالة، لخلق الشيء الوحيد القادر على إنقاذنا من البربرية، ألا وهو ثقافة السلام.

وبالرغم من هذه المعلومات المأساوية المؤكدة، فإن سباق التسلح لا يتوقف لحظة واحدة. فالآن، وبينما نحن نتناول الغداء، جرى بناء رأس نووي جديد. وغداً، حين نستيقظ، ستكون هناك تسعة رؤوس نووية جديدة في مخازن الموت ببلدان العالم الثري. إن كلفة واحد من تلك الرؤوس تكفي لتعطير شلالات نياجرا بالصندل، ولو ليوم خريفي واحد.

لقد تساءل أحد كبار الروائيين في عصرنا ذات مرة عما إذا لم تكن الأرض هي جحيم كواكب أخرى. ربما تكون أقل من ذلك بكثير: مجرد قرية بلا ذاكرة، مفلتة من يد آلهتها في أقصى ضاحية من الوطن الكوني الكبير. لكن الشك المتزايد في أنها المكان الوحيد في المنظومة الشمسية الذي ازدهرت فيه مغامرة الحياة العجيبة، يقودنا دون مواربة إلى استخلاص نتيجة مثبطة للعزيمة: إن سباق التسلح يسير في اتجاه معاكس للذكاء.

وليس معاكساً للذكاء البشري وحسب، وإنما لذكاء الطبيعة ذاتها التي تجاوزت غايتها رؤيا الشعر وبصيرته. فمنذ ظهور الحياة المرئية

على الأرض، كان لا بد من مرور ثلاثمئة وثمانين مليون سنة كي تتعلم الفراشة الطيران، وكان لابد من مئة وثمانين مليون سنة أخرى كي تتقن الطبيعة صنع وردة دون أن يكون لها هدف آخر سوى الجمال، وكان لابد من أربعة عصور جيولوجية كي تتمكن الكائنات البشرية ـ خلافاً لجدنا قرد بيتكانتروب ـ من الغناء خيراً من العصافير، ومن الموت حباً. ومن غير المشرف للعبقرية البشرية، في العصر الذهبي للعلم، أن تتصور أن عملية مكلفة وهائلة، تطلب إنجازها ملايين السنين، يمكن لها أن ترجع إلى العدم الذي جاءت منه، بمجرد الضغط على زر.

وفي محاولة لمنع حدوث ذلك، اجتمعنا هنا، لنضم صوتنا إلى أصوات لا حصر لها تطالب بعالم خال من الأسلحة وبسلام عادل. ولكن حتى لو حدث ذلك ـ بل إذا حدث فعلاً ـ، فلن يكون اجتماعنا هنا عديم الجدوى. لأنه ربما جرى بعد ملايين وملايين الحقب من وقوع الانفجار، تتويج سمندل مختال، عاد ليذرع سلم ارتقاء الأجناس كله، بتاج أجمل امرأة في الخلق الجديد. علينا نحن رجال العلم ونساؤه، رجال الأدب ونساؤه، رجال الذكاء والسلام ونساؤه، علينا جميعاً تقع مسؤولية ألا يذهب المدعوون إلى حفلة

التتويج الخيالية تلك وهم مثقلون بالمخاوف التي نشعر بها اليوم. لهذا فإنني أقترح بكل تواضع، ولكن بكل ما في الروح من تصميم، أن نصل، الآن، الآن وهنا، إلى الالتزام بوضع تصور وصنع فُلك الذاكرة، القادر على النجاة من الطوفان النووي. أن نصنع نوعاً من قارورة الناجين من الغرق الكوني، نلقي بها في أقيانوسات الزمن، كي تعرف الإنسانية الجديدة عنا ما لا يمكن للصراصير أن ترويه لها، عن أن الحياة وُجدت هنا، وأن الألم والظلم كانا سائدين فيها، ولكننا بالرغم من ذلك كله عرفنا الحب، وكنا قادرين على تصور السعادة. وكي تعرف وتجعل جميع الأزمنة تعرف من هم المسؤولون عن كارثتنا، وكم صموا آذانهم عن صرخاتنا المطالبة بالسلام وبجعل هذه الحياة أفضل الحيوات الممكنة، وبأية اختراعات بربرية، وفي سبيل أية مصالح بائسة محوها من الكون.

فكرة غير قابلة للتدمير

هافانا، كوبا، ٤ كانون الأول ١٩٨٦

كل شيء بدأ ببرجي التوتر العالي هذين اللذين عند مدخل هذا البيت. برجين رهيبين، مثل زرافتين من بيتون همجي، أمر موظف بلا قلب بنصبهما داخل الحديقة الأمامية دون أن يتنازل ولو إلى تنبيه أصحاب المنزل الشرعيين، وهما ينقلان فوق رؤوسنا تياراً عالي التوتر بقوة مئة وعشرة ملايين فولت، تكفي لتشغيل مليون جهاز استقبال تلفزيوني أو تغذية ثلاثة وعشرين ألف مصباح بروجيكتور سينما قياس خمسة وثلاثين ميلمتر. ولقلقه من هذا الخبر، حضر الرئيس فيدل كاسترو إلى هنا منذ حوالي ستة شهور، محاولاً أن يرى إن كانت هنالك طريقة لتقويم ذلك الاعوجاج، وهكذا اكتشفنا أن البيت مناسب جداً لإيواء أحلام مؤسسة السينما الأمريكية اللاتينية الجديدة.

البرجان مازالا موجودين، طبعاً، ويزدادان قبحاً كل يوم بقدر ما يزداد البيت جمالاً. لقد حاولنا تقنيعهما بهيئة شجرتي نخيل،

بأغصان وارفة، لكن قبحهما جليّ إلى حدّ يفرض معه نفسه على أية وسيلة تنكرية. والشيء الوحيد الذي خطر لنا، كوسيلة أخيرة لتحويل هزيمتنا إلى انتصار، هو أن نتوسل إليكم بألا تروهما على ما هما عليه، وإنما باعتبارهما منحوتة لا علاج لها.

بعد تبنيه كمقر لمؤسسة السينما الأمريكية اللاتينية الجديدة فقط، علمنا أن تاريخ هذا المنزل لا يبدأ ولا ينتهي مع البرجين، وأن كثيراً مما يُروى عنه ليس حقيقة وليس كذباً. إنه سينما. فهنا، كما لا بد أن تكونوا قد لحتم، صوّر المخرج توماس غوتيريث آليا فيلم ***الناجون***، وهو فيلم، بعد مرور ثمانية أعوام على إنجازه وسبعة وعشرين عاماً على انتصار الثورة الكوبية، ليس حقيقة إضافية في تاريخ التخيل وليس كذبة ناقصة في تاريخ كوبا، وإنما هو جزء من هذا الواقع الثالث بين الحياة الحقيقية والاختلاق الخالص الذي هو الواقع السينمائي.

أي أن بيوتاً قليلة مثل هذا يمكنها أن تكون مناسبة للشروع منها بهدفنا النهائي، وهو ليس أقل من التوصل إلى تكامل السينما الأمريكية اللاتينية. هكذا ببساطة، وهكذا بمبالغة. ولا يمكن لأحد أن يديننا على البساطة وإنما على المبالغة في خطواتنا الأولية في سنتنا الأولى هذه من الحياة، والتي شاءت المصادفة أن تكتمل هذا اليوم،

يوم القديسة باربرا، وهو أيضاً، بفعل فنون القداسة أو التزمت، الاسم الأصلي لهذا البيت.

في الأسبوع القادم ستتلقى مؤسسة السينما الأمريكية اللاتينية من الدولة الكوبية تقدمة لن نمل أبداً من الشكر عليها، سواء لسخائها غير المسبوق ومناسبتها أم للاهتمام الشخصي الذي أولاه للمؤسسة السينمائي الأقل شهرة في العالم: فيدل كاسترو. وأنا أعني هنا المدرسة الدولية للسينما والتلفزيون، في سان أنطونيو دي لوس بانيوس، المهيأة لتأهيل محترفين من أميركا اللاتينية وآسيا وأفريقيا، بأفضل موارد التقنية المعاصرة. بناء المقر قد أنجز بعد ثمانية شهور فقط من بدء العمل فيه. المدرسون من مختلف بلدان العالم تم تعيينهم، والطلاب جرى اختيارهم، ومعظمهم صار هنا بيننا. وفرناندو بيرّي، مدير المدرسة، والذي لا يتميز بحسه غير الواقعي، عَرَّف بها قبل وقت قصير أمام الرئيس الأرجنتيني راؤول ألفونسين ـ دون أن تهتز عضلة واحدة في وجهه الذي كوجه قديس ـ بأنها «أفضل مدرسة للسينما والتلفزيون في تاريخ العالم قاطبة».

وستكون هذه، بسبب طبيعتها بالذات، أهم مبادراتنا وأكثرها طموحاً، ولكنها لن تكون الوحيدة، لأن تأهيل مهنيين لا يتوفر لهم

عمل سيكون طريقة مكلفة جداً لتنشيط البطالة. ولهذا بدأنا منذ هذه السنة الأولى بوضع الأسس لعملية تنشيط وإثراء واسعة لميدان السينما والتلفزيون في أميركا اللاتينية، ستكون خطواته الأولى هي التالية:

قمنا بالتنسيق مع منتجين خاصين لإنتاج فيلمين روائيين طويلين وثلاثة أفلام وثائقية طويلة، جميعها بإخراج مخرجين أمريكيين لاتينيين، وحزمة من خمس قصص للتلفزيون، مدة كل واحدة منها ساعة واحدة، ينفذها خمسة مخرجين سينمائيين أو تلفزيونيين من مختلف بلدان أميركا اللاتينية.

ونحن نقوم في هذه الأيام بالمساعي لمساعدة السينمائيين الأمريكيين اللاتينيين الشباب الذين لم يتمكنوا من إنجاز أو إنهاء مشاريعهم السينمائية أو التلفزيونية.

وقد تقدمنا في المساعي لاقتناء صالة سينمائية في كل بلد من بلدان أميركا اللاتينية، وربما في بعض العواصم الأوروبية، مخصصة لعروض دائمة ولدراسة السينما الأمريكية اللاتينية في كل الأزمنة.

نقوم بالتشجيع على إيجاد مسابقة سينمائية سنوية للهواة في كل بلد أمريكي لاتيني، من خلال فروع المؤسسة، كمنهج للاكتشاف المبكر للمواهب وكوسيلة من المدرسة الدولية للسينما والتلفزيون لاختيار طلابها في المستقبل.

نقوم حالياً برعاية بحث علمي حول وضع السينما والتلفزيون في أميركا اللاتينية، وإنشاء بنك معلومات سمعية بصرية حول السينما الأمريكية اللاتينية، وأول فيلموتيكا للسينما المستقلة في العالم الثالث.

ونقوم برعاية إعداد تاريخ متكامل للسينما الأمريكية اللاتينية ومعجم لتوحيد المصطلحات السينمائية والتلفزيونية في اللغة القشتالية.

بدأ فرع المؤسسة في المكسيك بجمع ونشر المقالات والوثائق الأساسية للسينما الأمريكية اللاتينية الجديدة في كل بلد على حدة.

وفي إطار مهرجان هافانا السينمائي هذا، ننوي إطلاق نداء لحكومات أميركا اللاتينية وهيئاتها السينمائية أن تحاول إعادة نظر خلاقة حول نقاط في قوانينها وحمايتها للسينما الوطنية، وهي قوانين تعرقل في أحيان كثيرة أكثر مما تحمي، وتمضي عموماً في اتجاه معاكس لتكامل السينما الأمريكية اللاتينية.

بين عامي ١٩٥٢ و١٩٥٥، أربعة ممن نحن اليوم على متن هذه السفينة كنا ندرس في المركز السينمائي التجريبي في روما: خوليو غارثيا إسبينوسا، معاون وزير الثقافة لشؤون السينما؛ وفرناندو

بيري، الحبر الأعظم للسينما الأمريكية اللاتينية الجديدة؛ وتوماس غوتيريث آليا، أحد أبرز صائغي هذه السينما، وأنا الذي كنت في ذلك الحين لا أرغبُ في شيء سوى أن أكون المخرج السينمائي الذي لم أَكُنْهُ قطّ. ومنذ ذلك الحين كنا نتحدث، بقدر ما نتحدث اليوم تقريباً، عن السينما التي يجب صنعها في أميركا اللاتينية وكيف يجب تحقيقها، وكانت أفكارنا مستوحاة من الواقعية الإيطالية الجديدة التي هي ـ مثلما يجب أن تكون سينمانا ـ الأقل موارد والأكثر إنسانية بين كافة أشكال السينما التي وجدت. ولكننا كنا واعين منذ ذلك الحين أن السينما الأمريكية اللاتينية، إذا كانت تريد الوجود فعلاً، فلا بد لها أولاً وقبل كل شيء من أن تكون سينما واحدة. وواقع أننا مازلنا هذا المساء نواصل هنا الحديث نفسه كمجانين في الموضوع نفسه بعد انقضاء ثلاثين عاماً، وأن يكون معنا في الحديث عن الشأن نفسه أمريكيون لاتينيون كثيرون من جميع الأنحاء ومختلف الأجيال، يدفعني إلى الإشارة إليه كدليل آخر على القوة الضاغطة لفكرة غير قابلة للتدمير.

في تلك الأيام في روما عشتُ مغامرتي الوحيدة في فريق إخراج تلفزيوني. فقد اختُرت في المدرسة كمساعد ثالث للمخرج

أليكسندرو بلاسيتي في فيلم ***من المؤسف أنه وغد***، وقد سبب لي ذلك سعادة كبيرة، ليس بسبب تقدمي الشخصي بقدر ما هو بسبب الفرصة المتوفرة في التعرف إلى الممثلة الأولى في الفيلم، صوفيا لورين. ولكنني لم أرها قطّ، لأن عملي تلخص، طيلة شهر، في الإمساك بحبل عند الناصية للحيلولة دون مرور الفضوليين. وبشهادة الخدمة الطيبة هذه، وليس بالشهادات الكثيرة والرنانة التي نلتها من مهنتي كروائي، أتجرأ اليوم على أن أكون رئيساً لهذا البيت مثلما لم أكن قط في بيتي، وأن أتحدث باسم أناس سينما كثيرين وبالغي الجدارة.

هذا هو بيتكم، بيت الجميع، والشيء الوحيد الذي ينقصه هو لافتة تُرى من كافة أنحاء العالم، تقول بحروف مستعجلة: «تُقبل التبرعات».

إلى الأمام.

مقدمة للألفية الجديدة

كاراكاس، فنزويلا، ٤ آذار ١٩٩٠

يُفتتح هذا المعرض الجريء في لحظة تاريخية بدأت فيها الإنسانية تصير مختلفة. عندما وضعت ميلاغروس مالدونادو تصورها عنه، قبل ثلاث سنوات، كان العالم لا يزال غارقاً في ظلال القرن العشرين، أحد أشد القرون شؤماً في هذه الألفية المحتضرة. كان الفكر أسير عقائد دوغمائية غير قابلة للمصالحة وأيديولوجيات نفعية مزروعة في الورق وليس في قلوب الناس، وسمتها الأكبر هي التخيل القانع بأننا في ذروة المغامرة الإنسانية. وفجأة، هبت ريح لا يُعرف من أين وبدأت تصدِّع هذا المارد ذي القدمين الطينيتين، وجعلتنا ندرك أننا مضينا في الطريق الخاطئ منذ زمن لا ندريه. ولكن خلافاً لما يمكن أن يبدو، لم يكن ذلك مقدمة لاختلال التوازن، وإنما هو على عكس تماماً: إنه الفجر الطويل لعالم يحكمه بالكامل تحرر الفكر، كيلا يحكم أحدٌ أحداً إلا برأسه بالذات.

ربما عاش أسلافنا في العصور ما قبل الكولومبية [ما قبل وصول كولومبس] تجارب مماثلة لهذه في العام ١٤٩٢، عندما وجدت جماعة من الملاحين الأوروبيين نفسها في هذه الأراضي التي تعترض الطريق إلى الهند. لم يكن أسلافنا القدماء يعرفون البارود ولا البوصلة، ولكنهم كانوا يعرفون التكلم مع الطيور، وتقصي المستقبل في دفاترهم، وربما كانوا يرتابون، وهم يتأملون النجوم في ليالي زمانهم الفسيحة، أن الأرض مدورة مثل برتقالة، ذلك أنهم كانوا يجهلون أسرار المعرفة الكبرى المعروفة اليوم، ولكنهم كانوا معلمي التخيل.

وهكذا حموا أنفسهم من الغزاة بأسطورة **إلدورادو**، عن إمبراطورية خيالية يغطس ملكها في البحيرة المقدسة وجسده مغطى بتبر الذهب. كان الغزاة يسألونهم أين هي، فيشيرون بأصابعهم الخمس الممدودة إلى اتجاه. ويقولون: «من هنا، من هناك، أبعد من هناك». وكانت الدروب تتكاثر، تختلط، تبدل وجهتها، ودائماً إلى أبعد، دائماً أبعد قليلاً. وتتحول الدروب إلى مستحيلة قدر الإمكان كيما يمر الباحثون المصابون بجنون الجشع عرضاً ويفقدون الأثر دون دروب عودة. لم يجد أحد **إلدورادو** قطّ، لم يرها أحد، لم توجد

قطّ، لكن ولادتها وضعت حداً للعصور الوسطى وشقت الطريق لواحد من أعظم عصور العالم. واسمه بحد ذاته يشير إلى حجم التغيير: عصر النهضة.

بعد خمسة قرون من ذلك كان على الإنسانية أن تشعر مرة أخرى بهزة أن حقبة جديدة بدأت عندما طبع نيل أرمسترونغ أثر قدمه على القمر. كانت أرواحنا معلقة بطرف خيط في صيف بانتيلاريا الشمسي، وهي جزيرة مقفرة إلى الجنوب من صقلية، ونحن نرى في التلفزيون تلك الجزمة شبه الأسطورية تبحث في العماء عن السطح القمري. كنا زوجين أوروبيين مع أطفالهما، وزوجين من أميركا اللاتينيةُ مع أطفالهما. وبعد الانتظار المتوتر، حطت الجزمة غير القمرية بنعلها على الغبار الجليدي ورتل المذيع الجملة التي لا بد أنه جرى التفكير فيها منذ بداية العصور: «أول مرة في تاريخ البشرية، يضع كائن بشري قدمه على القمر». جميعنا كنا نطفو أمام غبار التاريخ. جميعنا، باستثناء الأطفال الأمريكيين اللاتينيين الذين تساءلوا معاً في كورال: «أهي المرة الأولى؟». وأضافوا وهم يغادرون الحجرة خائبي الأمل: «يا للحماقة!». ففي نظرهم، كل ما كان قد مرّ ذات يوم في مخيلتهم ـ مثل **إلدورادو** ـ له

قيمة الواقع الناجز. وغزو الفضاء، مثلما يفترضون من المهد، قد جرى منذ زمن بعيد. وإذا به يحدث الآن فقط.

وهكذا، في عالم المستقبل الوشيك، لن يكون هنالك ما هو مكتوب مسبقاً ولن يكون ثمة مجال لأي حلم مكرس. فأشياء كثيرة كانت حقائق بالأمس لن تكون كذلك غداً. وربما تنحط قيمة المنطق الرسمي إلى منهج مدرسي كي يفهم الأطفال كيف كانت عادة الخطأ القديمة الباطلة، وربما تُبَسَّط تكنولوجيا الاتصالات الحالية الهائلة والمعقدة حتى تتحول إلى التخاطر. سيكون ذلك نوعاً من البدائية المتنورة، وستكون أداتها الأساسية هي التخيل.

عندئذ سيكون عصر أميركا اللاتينية، المنتج العالمي الأول للخيال المبدع، المادة الأساسية الأغنى والأكثر ضرورة في العالم الجديد، ومنها يمكن لهذه اللوحات المئة، لمئة رسام بعيد البصيرة، أن تكون أكثر بكثير من مجرد عيِّنة: ستكون النذير بقارة لم تُكتشف بعد، سيهزم فيها الموت بالسعادة، وسيكون هنالك سلام إلى الأبد، ووقت أكثر وصحة أفضل، وطعام أكثر سخونة، ورقصات رومبا أكثر متعة، وسيكون هناك مزيد من كل شيء جيد للجميع. وبكلمتين فقط: حب أكثر.

تحالف بيئي لأميركا اللاتينية

غوادالاخارا، المكسيك، ١٩ تموز ١٩٩١

السادة الرؤساء، صاحب الجلالة، أيها الأصدقاء:

سأقرأ ملخصاً لوثيقة مجموعة المئة التي أشكل جزءاً منها، موقعة من عدد كبير من الكتّاب والفنانين الأمريكيين اللاتينيين، ونصها الكامل سيسلّم إلى حضراتكم في سياق هذا الاجتماع.

الأرض تمر بأسوأ أزمة بيئية في تاريخها. فنصف غابات العالم المدارية تقريباً قد اختفى من الوجود. ويُفقد ما بين ستة عشر وعشرين مليون هكتار من الغابات سنوياً، وفي كل ساعة ينقرض جنس من الأحياء. وحتى العام ٢٠٠٠، ستكون ثلاثة أرباع غابات أميركا المدارية قد دُمرت، ومن المحتمل أن نكون قد فقدنا خمسين بالمئة من الأجناس الحية فيها. ومن ضحايا هذه الكارثة الفلكية، يمكن أن يمحى من التاريخ ما لا يقل عن ثماني عشرة قبيلة ما قبل كولومبية من أهم قبائل أميركا اللاتينية والكاريبي.

من جهة أخرى، تُسكب كل عام ملايين أطنان الفضلات السامة في مياهنا التي حولتها البلدان المتطورة إلى مكب هائل للسموم. سبعون بالمئة من هذه الفضلات يأتي من الولايات المتحدة. هذا يعني أن ما كلف الطبيعة ملايين السنين لخلقه، دمرناه نحن البشر خلال أكثر قليلاً من أربعين عاماً.

لحسن الحظ أنه مازال لدينا نحن الأمريكيين اللاتينيين الكثير لإنقاذه: فمن تسعمئة مليون هكتار من الغابات المدارية على الأرض، نملك نحن ثمانية وخمسين بالمئة، وتملك البرازيل منها ثلاثة وثلاثين بالمئة. ويوجد في بنما وحدها أنواع من النبات بقدر ما هو موجود في أوروبا كلها. ومحمية تامبوباتا في البيرو هي موطن أروع الطيور والفراشات في العالم. ونباتات وحيوانات تيبويس في فنزويلا هي كنوز طبيعية حقيقية. وأدغال لاكاندونا هي المنطقة المدارية المطيرة الأكثر اتساعاً في النصف الشمالي من الكرة الأرضية. في الأمازون لا يتدفق فقط خُمس المياه العذبة على الأرض كل يوم، وإنما منطقة الأمازون أيضاً هي النظام البيئي الأكثر غنى وتعقيداً على الكوكب. وممر الطيور المهاجرة الأكثر كثافة في أميركا يخترق الشطر الشرقي من المكسيك، ويجتاز أميركا الوسطى ليصب في

منطقة الأمازون. والبرازيل وكولومبيا هما ضمن أربعة بلدان في العالم تضم أكبر تنوع نباتي وحيواني في العالم. ولكن عملاً موحداً ونشطاً ومثابراً من حكوماتنا يمكن له وحده أن يحفظ هذه الثروات من الكارثة النهائية.

بهذا الوعي، أيها السادة الرؤساء، وكجماعة كبيرة العدد ومتميزة من أناس الفنون والآداب في أميركا اللاتينية، جئت لأقترح أمامكم بلورة تحالف بيئي لأميركا اللاتينية سيكون دون ريب إجراء في مشروع ليس سهلاً بأي حال لإنقاذ العالم.

لستُ موجوداً هنا

هافانا، كوبا، ٨ كانون الأول ١٩٩٢

صباح هذا اليوم، قرأت في جريدة أوروبية أنني غير موجود هنا. لم يفاجئني ذلك، لأنني كنت قد سمعت من قبل من يقول إنني قد نقلتُ أثاثي وكتبي واسطواناتي ولوحاتي من القصر الذي أهداه إليّ فيدل كاسترو، وإنني أُخرج من خلال إحدى السفارات مخطوطة رواية رهيبة ضد الثورة الكوبية.

وإذا كنتم أنتم لا تعرفون ذلك، فإنهم هم يعرفونه. وربما هذا هو السبب في أنني لا أستطيع أن أكون هنا هذا المساء لافتتاح هذه القاعة السينمائية التي ربما تكون، كما هي السينما، وكما هو كل من لهم علاقة بالسينما، مجرد إيهام بصري. فقد كلفنا الكثير من الذعر والقلق ألا نتمكن اليوم ـ بعد خمسمئة عام وشهر وستة وعشرين يوماً من وصول كولومبس ـ من تصديق أن هذه القاعة هي حقيقة في الواقع.

في لحظات مختلفة من هذه القصة حدثت معجزات مختلفة، ولكن كانت هناك واحدة حاسمة: التطور العلمي المبهر في البلاد. وقد كان واحداً آخر من الأحلام الكبيرة التي تحولت إلى واقع بشأن هذا البيت. لم يحدث قطّ أن كان لقاعة سينمائية مثل هذه القاعة من جيران لامعين وكرماء. فعندما بدا أن القاعة محكوم عليها حقاً بعدم الوجود، طرق أولئك الجيران بابنا، لا ليطلبوا منا شيئاً، وإنما ليقدموا لنا المساعدة. ولهذا السبب بالذات تتقاسم مؤسسة السينما الأمريكية اللاتينية الجديدة اليوم، وبعدل، الانتفاع بهذه القاعة مع الأسرة العلمية في كوبا، مع التأكيد أن لدى كل منا الكثير ليقوله للآخرين. وهذا ليس جديداً: سان جون بيرس، في خطابه الرائع عند نيله جائزة نوبل، أثبت إلى أي حد هي مشتركة مصادر ومناهج العلوم والآداب. وكما ترون، ولكي لا أكون موجوداً هنا، لم يكن قليلاً ما استطعت قوله. وعسى أن يشجعني هذا على أن أعيد مجدداً أثاثي وكتبي وقصصي، وأن يتكرَّم علينا قانون توريشلي[1] الجميل بالسماح لنا بأن نُحضر من مكان ما أحجار أساس أخرى لمنشآت كثيرة مثل هذه.

---

(١) قانون توريشلي la Ley Torricelli: قانون قدمه السيناتور عن نيوجرسي روبرت توريشلي إلى الكونغرس الأميركي عام ١٩٩٠، وصادق عليه الكونغرس وأصدره الرئيس جورج بوش (الأب) في الثالث والعشرين من تشرين الأول ١٩٩٢، ويقضي بتشديد العقوبات والحصار الاقتصادي على جمهورية كوبا لإسقاط النظام الاشتراكي فيها على إثر سقوط الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي في أوروبا.

على شرف بيليساريو بيتانكور

بمناسبة بلوغه السبعين

سانتا في دي بوغوتا، كولومبيا، ١٨ شباط ١٩٩٣

بسبب خطأ في حسابات التوقيت، اتصلتُ بالقصر الرئاسي في الساعة الثالثة فجراً. وبدت لي وقاحتي أشد هولاً عندما سمعتُ عبر الهاتف صوت رئيس الجمهورية شخصياً. «لا تقلق ـ قال لي بإيقاعه الأسقفي ـ ففي هذه الوظيفة شديدة التعقيد لا يبقى لي متسع آخر من الوقت لقراءة الشعر». وهذا ما كان فيه الرئيس بيليساريو بيتانكور في ذلك الفجر المرتعش من أيام السلطة: كان يعيد قراءة أشعار دون بيدرو سابيناس الرياضية، قبل أن تصله الصحف لتملأ يومه الجديد بمرارة أوهام الحياة الواقعية.

منذ تسعمئة عام، كان غييرمو التاسع، دوق أكيتانيا العظيم، يسهر في ليالي الحرب لينظم أشعاره المتهتكة وقصائده الغرامية.

وهنري الثامن ـ الذي دمر مكتبات فريدة وقطع رأس توماس مور ـ انتهى به المطاف إلى أنطولوجيات شعر العصر الإليزبيثي. وكان القيصر نيكولاس الأول يساعد بوشكين على تصحيح قصائده للحيلولة دون تعثرها بالرقابة الدموية التي فرضها هو نفسه. لم يُبدِ التاريخ مثل هذه القسوة مع بيليساريو بيتانكور لأنه لم يكن في الواقع حاكماً يحب الشعر، وإنما شاعراً فرض عليه القدر عقوبة السلطة. فقد كان الشعر ميلاً طاغياً، ظهر فخه الأول في طريقه وهو في الثانية عشرة بمدرسة يارومال الدينية. وهذا ما حدث: بينما هو منهوك من قحولة rosa rosae rosarum[1] كتب بيليساريو أول أبياته الشعرية باستلهام كيبيدوي[2] واضح، قبل أن يقرأ كيبيدو، وبمقاطع ثمانية بارعة قبل أن يقرأ غونثالث.

رباه، رباه، نتضرع إليك،

نتضرع بلا نهاية،

أن تُنزل صواعق براز

---

(١) باللاتينية في الأصل، وتعني وردةُ الوردة ورود، وهي من العبارات الشائعة لتعليم اللغة اللاتينية للأطفال في المدارس الدينية الكاثوليكية.

(٢) كيفيدوي: نسبة إلى الشاعر الإسباني فرانثيسكو دي كيبيدو Francisco de Quevedo (١٥٨٠- ١٦٤٥).

على أستاذ اللغة اللاتينية.

وقد نزلت الصاعقة الأولى عليه هو نفسه، وذلك بطرده الفوري من المدرسة. ولابد أن الرب قد عرف جيداً ما فعله. فلو لم يحدث ذلك، من يدري إن لم يكن علينا أن نحتفل اليوم بسبعين عاماً على ولادة أول بابا كولومبي.

لا يمكن لشباب اليوم أن يتصوروا إلى أي حدّ كانت الحياة تعاش في ظل الشعر. لم يكن يقال الصف الأول الثانوي وإنما الأول في الأدب، وكانت الشهادة الثانوية، على الرغم من دروس الكيمياء ومن حساب المثلثات، تسمى بكالوريا في الآداب. وبالنسبة لنا، نحن أبناء كافة المحافظات، لم تكن بوغوتا في نظرنا عاصمة البلاد ولا مقر الحكومة، وإنما مدينة المطر التي يعيش فيها الشعراء. ولم نكن نؤمن بالشعر فقط، وإنما كنا نعلم علم اليقين ـ مثلما يقول كاردوثا آي أراغون ـ أن الشعر هو الدليل الوحيد على وجود الإنسان. كانت كولومبيا تدخل القرن العشرين متأخرة قرابة نصف قرن بفضل الشعر. لقد كان شغفاً جنونياً جامحاً، طريقة أخرى للعيش مثل كرة شمع تمضي على هواها في كل الأنحاء: يرفع أحدنا البساط بمكنسة كي يخبئ تحتها القمامة، فلا يستطيع ذلك، لأن الشعر موجود هناك.

يفـتح الجريـدة، حتـى في الـصفحة الاقتـصادية أو في الـصفحة القضائية، فيجد الشعر هناك. وفي بقايا فنجان القهوة، حيث يكـون قـدرنا مكتوبـاً، نجد الشعر. وحتى في الحساء، ففيه وجده إدواردو كارانثا: «العيون التي تنظر من خلال ملائكة بخار الحساء المنزليين». وقـد وجـده خـورخي روخـاس في متعـة اللعـب بتوريـة بارعـة: «حوريـات البحـر لا يفـتحن سـيقانهن لأنهـن حـذرات»[1]. ووجـده دانييل أرانغو في بيت شعر أحد عشري متقن، مكتوب بخط متعجل علـى واجهـة أحـد المتـاجر: «تحقيـق شـامل للوجـود». وحتـى في المراحيض العامـة، حيـث كـان يخبئه الرومـان، كـان الشعر موجوداً «إذا كنـا لا نخشى الـرب، فلـنخشَ الـسفلس». وبالرعـب التـوقيري نفسه الذي كنا نذهب فيه ونحن أطفال إلى حديقة الحيوان، اعتدنا الذهاب إلى المقهى الذي يجتمع فيه الشعراء عند الغروب. هنـاك كـان المعلم ليون غريفتس يعلّم كيفية الخسارة في الشطرنج دون ضغينة، وعدم منح هدنة واحدة لتوعك ما بعد السُّكْر، وقبـل ذلـك كلـه، عدم الخوف من الكلمات. تلك هي مدينة بوغوتـا الـتي وصل إليهـا بيليساريو بيتانكور عندما انطلق في مغامرة الدنيا، وسط فصيلة من

---

(١) للحوريات كما هو معروف ذيول أسماك، والكاتب يستخدم هنا ضرباً من الجناس بقوله إنهن escamadas وهذا يعني إنهن حذرات، وإنهن ذوات حراشف.

فتيـان أنتيوكيـا الجـامحين، بقبعـة لِبـد ذات حـواف خفاشـية كـبيرة ومعطـف كهنـوتي يميـزه عـن بقيـة أبنـاء الفنـاء. جـاء ليـستقر في مقهـى الشعراء، مثل بطرس في بيته.

ومنذ ذلك الحين لم يمنحه التـاريخ لحظـة راحـة واحـدة. وأقـل مـن ذلك، مثلما نعـرف جيداً، في رئاسـة الجمهوريـة الـتي كانـت خيانتـه الوحيدة للشعر. لم يُكتـب لأي حـاكم كولـومبي آخـر أن يواجـه، في وقت واحد، زلزالاً مدمراً، وثوران بركان قاتل، وحربين دمـويتين، في بلاد بروموثيوسية معذبة تقتتل في مـا بينهـا في سـبيل لهفـة العيش. وأظن، مع ذلك، أنه إذا تمكن مـن تجنـب ذلـك كلـه، فلـيس بفـضل كبده الـسياسي، وهـو يمتلكـه، ويمتلكـه برسـوخ، وإنمـا بفـضل قـدرة الشعراء الخارقة على تحمل المصائب.

لقد تطلـب الأمـر سـبعين عامـاً وخيانـة مجلـة شـبابية كـي ينكـشف بيليـساريو عاريـاً أخـيراً، دون أوراق التـوت الكـثيرة متعـددة الألـوان والحجـوم الـتي اسـتخدمها في الحيـاة كـيلا يتحمـل مـسؤولية مجازفاتـه كـشاعر. إنهـا، في ركـود الـسبعين مـن العمـر، طريقـة وقـورة وبديعـة للعودة إلى الشباب. ولهذا بدا لي عادلاً جداً أن يلتقي هذا الجمـع مـن الأصـدقاء في بيـت للـشعر. وبخاصـة في هـذا البيـت بالـذات، حيـث

مازال يُسمع، في ساعات الفجر، وقع خطوات خوسيه أسونثيون المتكتمة، وقد أيقظته ضجة الورود، وحيث عدنا للقاء نحن الأصدقاء الكثيرين الذين نحب بيليساريو، منذ ما قبل أن يصبح رئيساً، ومن عانينا من أجله كثيراً عندما كان رئيساً، ومن مازلنا نحبه أكثر من أي وقت آخر، الآن وقد توصل إلى الفردوس النادر وغير المعهود بألا يكون رئيساً وألا يرغب في أن يكون كذلك.

صديقي موتيس

سانتافي دي بوغوتا، كولومبيا، ٢٥ آب ١٩٩٣

بمناسبة بلوغ ألبارو موتيس السبعين

توصلت أنا وألبارو موتيس إلى الاتفاق على عدم تحدث أحدنا عن الآخر أمام الملأ، سواء بالخير أو الشر، كلقاح ضد حصبة المديح المتبادل. ومع ذلك، ومنذ عشر سنوات بالضبط، وفي هذا المكان بالذات، خرق هو اتفاق السلامة الاجتماعية ذاك، لمجرد أن الحلاق الذي أوصيته بالتعامل معه لم يعجبه. وقد انتظرت منذ ذلك الحين الفرصة لآكل طبق الانتقام بارداً، وأظن أنه لا وجود لمناسبة ملائمة أكثر من هذه.

لقد روى ألبارو يومذاك كيف عَرَّف غونثالو مايّارينو أحدنا على الآخر في مدينة كارتاخينا الحالمة سنة ١٩٤٩. وكان يبدو أن ذلك اللقاء هو الأول بيننا بالفعل، إلى أن سمعته في مساء أحد الأيام،

قبل ثلاث أو أربع سنوات، يقول بصورة عرضية شيئاً ما عن فيلكس مينديلسون. فكان ذلك وحياً أعادني فجأة إلى سنواتي كطالب جامعي، في قاعة الموسيقى المقفرة في مكتبة بوغوتا الوطنية التي كنا نلوذ بها نحن من لا نملك خمسة سنتات لندرس في المقهى. وبين زبائن المساء القليلين في قاعة الموسيقى، كنت أكره واحداً له أنف هائل، وحاجبان تركيان، وجسد ضخم، ينتعل حذاء صغيراً مثل حذاء بوفالو بيل. يدخل في الساعة الرابعة مساء بالضبط ودون تخلف، ويطلب عزف كونشيرتو الكمان لمينديلسون. وكان لابد من مرور أربعين سنة، حتى ذلك اليوم في بيتي في مكسيكو، كي أتعرف فجأة على الصوت المتحشرج، وعلى قدمي الطفل الرب، وعلى اليدين المرتجفتين غير القادرتين على إدخال إبرة في عين جمل. فقلت له مهزوماً: «يا للعنة. لقد كنتَ أنت إذاً».

الشيء الوحيد الذي أسفت له هو أنني لم أستطع أن أجعله يدفع ثمن الضغينة المؤجلة، لأننا كنا قد ابتلعنا معاً كميات كبيرة من الموسيقى، بحيث لم يعد أمامنا سبل للتراجع. وهكذا بقينا صديقين، على الرغم من الشرخ العميق الذي ينفتح في منتصف ثقافته الواسعة، والذي سيفصل بيننا إلى الأبد: عدم حبه لموسيقى البوليرو الشعبية.

لقد عانى ألبارو مخاطر كثيرة في مهنه الغريبة التي لا حصر لها. ففي الثامنة عشرة من عمره، عندما كان يعمل مذيعاً في إذاعة «راديو ناسيونال»، انتظره زوجٌ غيور مسلح عند الناصية، معتقداً أنه ضبط رسائل مشفرة موجهة إلى زوجته في التقديم الذي يرتجله ألبارو في برامجه. وفي مناسبة أخرى، خلال حفل رسمي مهيب في هذا القصر الرئاسي بالذات، خلط بين سياسيين كبيرين يحملان اللقب نفسه وقلبهما رأساً على عقب. ثم أخطأ في ما بعد، أثناء عمله كخبير علاقات عامة، في الفيلم الذي سيعرضه في اجتماع خيري. فبدلاً من أن يعرض فيلماً وثائقياً عن أطفال أيتام، عرض على سيدات المجتمع الطيبات فيلم كوميديا بورنوغرافية عن راهبات وجنود، مُقَنَّع بالعنوان البريء الزائف: «زراعة البرتقال». وقد عمل أيضاً مسؤول علاقات عامة في شركة طيران انتهت إلى الإغلاق عندما سقطت طائرتها الأخيرة. وكان وقت ألبارو يضيع في تحديد هوية الجثث، لكي ينقل الخبر إلى ذوي الضحايا قبل أن تنقله إليهم الصحف. فكان الأقارب الغافلون يفتحون الباب معتقدين أن السعادة هي التي تطرقه، وبمجرد أن يتعرفوا على وجه القادم ينهارون مصعوقين وهم يطلقون صرخة حزن.

وفي وظيفة أخرى أكثر لطفاً، كان عليه أن يُخرج من فندق في بارانكيا الجثة البديعة لأغنى رجل في العالم. أنزله بوضع عمودي في مصعد الخدمة داخل تابوت اشتُري على عجل من محل جنائزي عند الناصية. وقد قال للنادل الذي سأله عمن في التابوت: «إنه السيد المطران». وفي مطعم في مكسيكو، حيث كان يتكلم صارخاً، حاول زبون على طاولة مجاورة أن يعتدي عليه، ظناً منه أنه هو بالفعل والتر وينتشل، الشخصية الشريرة في مسلسل **«الأبرياء»** الذي كان ألبارو يشارك في دبلجته للتلفزيون. وطوال ثلاثة وعشرين عاماً من عمله كبائع أفلام معلبة لأميركا اللاتينية، دار حول العالم سبع عشرة مرة دون أن يغير أسلوبه في الحياة.

ما قدرته فيه منذ الأزل هو أريحيته كمعلم مدرسة، وتمتعه بميل طبيعي ضارٍ إلى هذه المهنة التي لم يستطع ممارستها بسبب رذيلة البلياردو اللعينة. ليس هناك كاتب ممن أعرفهم يهتم قدر اهتمامه بالآخرين، وخصوصاً اليافعين منهم. فهو يحثهم على التعلق بالشعر رغم أنف آبائهم، ويفسدهم بكتب سرية، وينومهم مغنطيسياً بطلاوة لسانه، ثم يلقي بهم ليتدحرجوا في العالم، مقتنعين بأنه يمكن للمرء أن يصبح شاعراً دون الوقوع في التجربة.

ليس هناك من استفاد من فضيلته ضئيلة القيمة هذه أكثر مني. لقد رويت في مناسبة سابقة أن ألبارو هو من قدم إليَّ أول نسخة من رواية ***بيدرو بارامو*** قائلاً لي: «خذ، كي تتعلم». ولم يتصور قط أين حشر نفسه. فبقراءتي لرواية خوان رولفو لم أتعلم الكتابة بطريقة أخرى وحسب، وإنما تعلمت كذلك أن تكون لديّ على الدوام قصة أخرى مختلفة لكي أروي ما أكون منكباً على كتابته. وضحيتي المطلقة في نظام النجاة ذاك كان ألبارو موتيس نفسه منذ أن كتبت ***مئة عام من العزلة***. ففي كل ليلة تقريباً كان يأتي إلى بيتي طوال ثمانية عشر شهراً، لكي أروي له الفصول الناجزة من الرواية، وبهذه الطريقة كنت أرصد ردود فعله، مع أن القصة التي أرويها له ليست هي نفسها التي أكتبها. وكان هو يستمع بحماس شديد ويواصل رواية ما رويته له أينما ذهب، مضيفاً إليه تصحيحات وزيادات من عنده. وكنت استحوذ في أحيان كثيرة على إضافاته تلك عندما يروي لي أصدقاؤه في ما بعد القصة مثلما رواها لهم ألبارو. وحين أنهيت مسودة الكتاب الأولى أرسلتها إليه في بيته. وفي اليوم التالي اتصل حانقاً وصرخ بي:

«لقد جعلتني أبدو مثل كلب أمام أصدقائي. فهذا الشيء المكتوب لا علاقة له بما رويته لي».

لقد صار منذ ذلك الحين أول قارئ لمخطوطات رواياتي. أحكامه شديدة الفجاجة، ولكنها شديدة العقلانية أيضاً. وأنا نفسي لا أستطيع أن أقدر كم يوجد منه في كتبي كلها تقريباً، ولكنني أقول إن هناك الكثير.

كثيراً ما يسألوني كيف أمكن لهذه الصداقة أن تزدهر في أزمنة الخراب هذه. والجواب بسيط: فأنا وألبارو لا نلتقي إلا قليلاً جداً، ومن أجل أن نكون صديقين فقط. فمع أننا عشنا في مكسيكو أكثر من ثلاثين سنة، وكنا جارين تقريباً، فإن لقاءاتنا هناك كانت أقل من أي مكان آخر. فعندما أريد رؤيته، أو يريد هو رؤيتي، نتصل هاتفياً للتأكد من أن كل منا يريد رؤية الآخر. ولم أخرق قاعدة الصداقة الأساسية هذه سوى مرة واحدة، وقدم لي ألبارو آنذاك دليلاً بالغاً على نوعية الصديق الذي يمكن له أن يكونه.

وقد حدث ذلك كما يلي: كنت مشبعاً بخمرة التيكيلا عندما طرقت مع صديق عزيز جداً، في الساعة الرابعة فجراً، باب الشقة التي كان يتحمل فيها ألبارو حياته الحزينة كعازب متقيد بالسلوك القويم. ودون أن نقدم له أي تفسير، وأمام عينيه اللتين مازالتا غائمتين بالنعاس، انتزعنا لوحة مائية بديعة لبوتيرو، طولها متر

وعشرين سنتيمتراً وعرضها متر، وأخذناها دون تقديم تفسيرات، وفعلنا بها ما شئناه. لم يقل لي ألبارو كلمة واحدة حول ذلك الاعتداء، ولم يحرك إصبعاً ليعرف ما لذي جرى للوحة، وكان علي أن أنتظر حتى هذه الليلة التي نحتفل فيها بسنواته السبعين الأولى لكي أعرب له عن ندمي.

عامل آخر دعم هذه الصداقة هو أن معظم المرات التي كنا فيها معاً، جرت ونحن على سفر. فكان ذلك يتيح لنا الاهتمام بالآخرين وبأشياء أخرى في معظم الوقت، دون أن يهتم أحدنا بالآخر إلا عندما يكون هناك ما هو جدير بذلك فعلاً. لقد كانت دروب أوربا اللانهائية بالنسبة لي هي جامعة الفنون والآداب التي لم أدرس فيها قط. فمن برشلونة إلى إكس ـ آن ـ بروفانس تعلمت أكثر من ثلاثمئة كيلومتر عن هراطقة القرنين الحادي والثاني عشر وبابوات أفنيون. وكذلك الأمر في الإسكندرية كما في فلورنسا، وفي نابولي كما في بيروت، وفي مصر كما في باريس. ومع ذلك، فإن أكثر الدروس التي تعلمتها منه غموضاً في رحلاتنا الجنونية، كانت عبر الريف البلجيكي المخلخل بضباب تشرين الأول ورائحة البراز البشري المنثور في الأراضي المستريحة التي هُجرت لتوها. كان ألبارو قد قاد

السيارة طوال أكثر من ثلاثة ساعات، بصمت مطبق، وإن كان لا أحد يصدق ذلك. ثم قال فجأة: «بلاد دراجين وصيادين عظماء». ولم يوضح لنا قط ما الذي عناه بقوله، ولكنه اعترف لنا بأنه يحمل في داخله مخبولاً عملاقاً، كثيف الشعر وسائل اللعاب، يفلت في لحظات سهوه عبارات مثل تلك، ولا يتورع عن عمل ذلك في أشد الزيارات خصوصية، وحتى في القصور الرئاسية، وأنه يتوجب عليه أن يوقفه عند حده وهو يكتب، لأنه يصاب بمس من الجنون، ويأخذ بالتخبط والرفس متلهفاً ليصحح له ما يكتبه.

على الرغم من ذلك كله، فإن أفضل الذكريات عن تلك المدرسة الجوالة لم تكن دروسها، وإنما فُسح الراحة بين الدروس. ففي باريس، وبينما نحن ننتظر انتهاء زوجتينا من الشراء، جلس ألبارو على درجات مدخل كافيتريا كثيرة الرواد، ولوى رأسه نحو السماء، وأظهر بياض عينيه، ومد يده المرتعشة كمتسول. فقال له رجل متأنق بتأنف الفرنسيين التقليدي: «من الوقاحة أن تطلب صدقة وأنت ترتدي مثل هذه الكنزة الكشميرية». ولكنه منحه فرنكاً. وخلال أقل من خمس عشرة دقيقة جمع أربعين فرنكاً.

وفي روما، في بيت فرانسيسكو روسي، نوّم كلاً من فيلليني، ومونيكا فيتي، وأليدا فاللي، وألبيرتو مورافيا، صفوة وجوه السينما

والأدب الإيطاليين، وأبقاهم معلقين في ترقب طوال ساعات، وهو يروي لهم قصصه المريعة عن مقاطعة كينيرو الكولومبية بلغة إيطالية ابتدعها هو نفسه، لا وجود فيها لكلمة إيطالية واحدة. وفي أحد بارات برشلونة، ألقى قصيدة بصوت نيرودا وخموده، وكان هناك شخص سمع يوماً إلقاء نيرودا شخصياً، فطلب منه أن يوقع له أتوغرافاً معتقداً أنه نيرودا نفسه. وهناك سطر من شعره أثار في نفسي القلق مذ قرأته: «الآن أعرف أنني لن أعرف إسطنبول أبداً». إنه بيت شعر غريب لدى شخص يؤمن بالنظام الملكي إيماناً لا خلاص منه، ولم ينطق في حياته قط اسم إسطنبول وإنما يسميها بيزنطة، مثلما لم يقل قط لينينغراد، بل سان بطرسبورغ، قبل وقت طويل من أن يبين التاريخ أنه كان على حق. ولست أدري لماذا راودني التكهن بأنه علينا أن نعزِّم على بيت الشعر ذاك بالتعرف على إسطنبول. وهكذا أقنعته بأن نذهب في سفينة بطيئة، مثلما هو الحال عندما يريد المرء أن يتحدى القدر. ولكنني لم أجد مع ذلك لحظة واحدة من الطمأنينة طوال الأيام الثلاثة التي أمضيناها هناك، إذ كنت مذعوراً من القدرة المنذرة للشعر. واليوم فقط، عندما صار ألبارو شيخاً في السبعين وصرت أنا طفلاً في السادسة والستين، أتجرأ على القول إنني لم أقم بتلك الرحلة لكي أهزم بيتاً من الشعر، وإنما لأعارض الموت.

والمرة الوحيدة على أي حال، التي اعتقدت فيها حقاً أنني على وشك الموت، كنت فيها مع ألبارو أيضاً. كنا نمضي في السيارة عبر إقليم بروفانس المنير، عندما انقض علينا فجأة سائق مجنون آت من الاتجاه المعاكس. لم أجد مفراً من تدوير المقود بسرعة إلى اليمين، ولا وقتاً لأنظر أين سنسقط. وراودني للحظة الإحساس بأن المقود لا يستجيب لي في الفراغ. كانت كارمن وميرثيدس في المقعد الخلفي كالعادة، وقد انقطعت أنفاسهما إلى أن استقرت السيارة مثل طفل على منحدر حقل كرمة ربيعي. الشيء الوحيد الذي أتذكره من تلك اللحظة هو وجه ألبارو في المقعد المجاور، وهو ينظر إليّ قبل ثانية واحدة من لحظة الموت بملامح مشفقة كمن يريد أن يقول: «ما الذي يفعله هذا النذل!».

ملامح ألبارو الفظة هذه لا تفاجئنا كثيراً نحن الذين عرفنا أُمَّه كارولينا خاراميو وعانينا منها، إنها امرأة جميلة مهووسة لم تنظر إلى مرآة منذ بلوغها العشرين، لأنها بدأت ترى بأنها تبدو مختلفة عما تشعر بأنها عليه. وحين صارت جدة متقدمة في السن، واصلت التنقل على دراجة وهي ترتدي ملابس صياد، لتزرق الحقن مجاناً في مزارع السهب الكولومبي. وفي إحدى الليالي في نيويورك، طلبتُ

منها أن تبقى للسهر على ابني ذي الأربعة عشر شهراً ريثما نذهب إلى السينما. فنبهتنا هي بكل جدية إلى أن نكون حذرين، لأنها أقدمت على معروف مماثل في مانيثاليس بالبقاء مع طفل لا يكف عن البكاء، فاضطرت إلى إسكاته بحلوى توت مسممة. ومع ذلك، عهدنا إليها بالطفل في يوم آخر في مخازن ماسيس، وعندما رجعنا وجدناها وحيدة. وبينما كان رجال الأمن يبحثون عن الطفل، حاولت هي مواساتنا بالجدية الضبابية نفسها التي يبديها ابنها:

«لا تقلقوا. لقد ضاع مني ألبارو في بروكسل عندما كان في السابعة، وها أنتم ترون الآن كيف أنه على ما يرام»

إنه على ما يرام بالطبع، ما دام نسخة مثقفة ومضخمة عنها، ومعروف في نصف الكوكب، ليس بفضل شعره بقدر ما هو بفضل كونه أكثر الرجال لطفاً في العالم. فأينما حل يخلف أثراً لا يُنسى من مبالغته الجنونية، وولائمه الانتحارية، وعبارته الفجة العبقرية. ونحن فقط، من نعرفه ونحبه أكثر من الجميع، نعرف أنها ليست أكثر من حركات متصنعة لإفزاع أشباحه. ولا يمكن لأحد أن يتصور ما هو الثمن الباهظ الذي دفعه ألبارو موتيس من أجل نكبة أن يكون لطيفاً. لقد رأيته مستلقياً على صوفا، في عتمة بيته الصغير، مع كآبة ضمير لا

يمكن أن يحسده عليها أي واحد من مستمعي شعره في الليلة السابقة. لحسن الحظ أن هذه الوحدة التي لا شفاء منها هي الأم الثانية التي يدين لها بحكمته الهائلة، وقدرته غير عادية على القراءة، وفضوله الطفولي، وروعة مخيلته، والأسى غير المحدود في شعره.

لقد رأيته متوارياً عن العالم في سمفونيات بروكنر سميكة الجلد كما لو أنها مقطوعات سكارلاتي الخفيفة المسلية. رأيته في ركن منعزل في حديقة كويرناباكا، خلال إجازة طويلة، هارباً من الواقع إلى الغابة السحرية لأعمال بلزاك الكاملة. وبين فترة وأخرى، مثل من يذهب لرؤية فيلم رعاة بقر، يعيد دفعة واحدة قراءة ***البحث عن الزمن المفقود***. ذلك أن الجيد في قراءة كتاب في نظره هو أن يكون الكتاب مؤلفاً من ألف ومئتي صفحة على الأقل. وفي السجن في مكسيكو، حيث أُدخل بسبب جرم استفاد منه عدد كبير منا نحن الكتّاب والفنانين، ودفع هو وحده الثمن، بقي حبيساً ستة عشر شهراً يعتبرها أسعد فترة في حياته.

لقد فكرت على الدوام بأن السبب في قلة عمله الإبداعي هو تعدد مهنه الطاغية. وفكرت كذلك بأن الأمر يتفاقم بسبب سوء حظه الكارثي الذي يبدو وكأنه مكتوب بريشة إوزة، كتبته الإوزة

نفسها، بخربشة مصاص دماء تبعث الكلاب على النباح في ضباب ترانسيلفانيا. وقد قال لي عندما أخبرته بذلك، منذ سنوات طويلة، إنه عندما سيتقاعد من أعماله العبودية، سوف ينجز كتبه المؤجلة. وكان ذلك هو ما حُدث بالفعل، فقد قفز دون مظلة من طائراته الأبدية إلى الأرض اليابسة لمجد وافر وحري بالجدارة، محققاً إحدى المعجزات في آدابنا: ثماني روايات خلال ست سنوات. ويكفي قراءة صفحة واحدة من أي كتاب منها لفهمه كاملاً: فأعمال ألبارو موتيس الكاملة، وحياته نفسها، هي أعمال وحياة متنبئ يعلم علم اليقين أننا لن نتمكن من العثور ثانية على الفردوس المفقود. هذا يعني أنه ليس هو وحده «ماكرول» (الشخصية الرئيسية في جميع أعمال ألبارو موتيس الأدبية)، مثلما يقال باستسهال. وإنما ماكرول هو نحن جميعنا.

فلنتوقف عند هذه النتيجة التعيسة، نحن من جئنا هذه الليلة لنحتفل مع ألبارو بهذه السبعين سنة من الحياة كلها. ولنقل له لأول مرة، دون الحياء الزائف، ودون المبادرة إلى شتم الأمهات خوفاً من الانخراط في البكاء: كم نقدرك، يا للعنة، وكم نحبك.

الأرجنتيني الذي جعل الجميع يحبونه

مدينة مكسيكو، ١٢ شباط ١٩٩٤

ذهبتُ إلى براغ آخر مرة في عام ١٩٨٦ الذي لا يُنسى، مع كارلوس فوينتس وخوليو كورتاثار. سافرنا في قطار من باريس لأننا نحن الثلاثة كنا متضامنين في خوفنا المشترك من الطائرات، وقد تحدثنا في كل شيء بينما نحن نجتاز ليل الألمانيتين المنقسم، وأقيانوسات شمندرهما، ومصانع كل شيء الهائلة، وأضرار الحروب الفظيعة والغراميات المتجاوزة للحد.

وفي موعد النوم، خطر لكارلوس فوينتس أن يسأل كورتاثار كيف وفي أي وقت وبمبادرة ممن جرى إدخال البيانو في أوركسترا الجاز. كان سؤالاً عابراً ولا يرمي إلا لمعرفة تاريخ واسم محددين، ولكن الجواب كان محاضرة أستاذية مبهرة امتدت حتى الفجر، وسط كؤوس هائلة من البيرة وسجق مع بطاطا مجمدة. فكورتاثار الذي يعرف جيداً كيف يَزِن كلماته، قدم لنا إعادة تركيب تاريخية

وجماليـة بتمكن وبساطة تكـاد لا تُصدق، انتهـت مـع أول الأنـوار بدفاع هـوميري عـن ثيلـونيس مونـك. لم يكـن يتكلم بـصوت أرغـن عميق وبراءات متجرجرة وحسب، وإنمـا كـذلك بيديه ذات العظـام الكـبيرة بـصورة لا أذكـر أيدٍ أخـرى أكثـر تعـبيراً منهمـا. لم نـنس، كارلوس فوينتس وأنا، قطّ ذهول تلك الليلة التي لا تتكرر.

بعـد سنتين مـن ذلـك رأيـتُ خوليـو كورتاثـار يواجـه حـشداً في حديقة بمدينة ماناغوا، دون أسلحة أخرى سوى صوته البديع وقصة قصيرة من أصعب قصصه: قـصة ملاكـم منكـوب يرويهـا هـو نفسه بلهجة اللونفاردو، لهجة فئات القاع في بوينس آيريس، فَهْمُهـا محـرم تماماً علينا نحن بقيـة أبنـاء الفنـاء لـو لم نحدسـه مـن خـلال الكـثير من أغاني التانغو الخبيثة. ومع ذلك، كانت تلك هي القصة التي اختارها كورتاثـار ليقرأهـا علـى كرسـي بـلا مـسند وأمـام جمـوع في حديقـة واسعة مضيئة، بينهـا أنـاس مـن كافـة المستويات، ابتـداء مـن شـعراء معـروفين وعمـال بنـاء عـاطلين وحتـى بعـض قـادة الثـورة الـساندينية وخـصومهم. وكانـت تجربـة مبهـرة أخـرى. وإن لم يكـن مـن الـسهل متابعة القصة بدقة، حتى لأشد المتدربين على لهجـة اللونفـاردو، إلا أن أحدنا كان يحس باللكمات وتؤلمه بينما يتلقاهـا الملاكـم البـائس في

عزلة الحلبة، ويشعر المرء برغبة في البكاء على أحلام الملاكم وبؤسه، ذلك أن كورتاثار قد توصل إلى تواصل بالغ الحميمية مع مستمعيه الذين لم يعد يهم أياً منهم ما الذي تعنيه أو لا تعنيه الكلمات، وإنما كانت الجموع الجالسة على العشب تبدو طافية في حالة من النعمة الربانية بسحر صوت لا يبدو أنه من هذا العالم.

هاتان ذكرتان عن كورتاثار اللتان أثرتا فيّ كثيراً تبدوان أيضاً أنهما أفضل ما يحدد شخصيته. إنهما الحدان النقيضان من شخصيته. في الجانب الخاص الحميم، كما في قطار براغ، يتوصل إلى الإغواء بتفوهه، بسعة معرفته الحية، بذاكرته الميلمترية، بظُرفه الخطر، بكل ما جعل منه مثقفاً من الكبار بالمعنى الطيب لأزمنة أخرى. وفي الجانب العام، على الرغم من تحفظه على تحويل نفسه إلى مشهد استعراضي، كان يفتن المستمعين بحضور محتوم لا يمكن تفاديه، فيه شيء خارق للطبيعة، رقيق وغريب في آن واحد. وفي الحالتين كلتيهما كان الكائن البشري الأكثر أهمية الذي حالفني الحظ بالتعرف إليه.

بعد سنوات من ذلك، حين كنا قد صرنا صديقين قديمين، ظننتُ أنني عدت لأراه مثلما رأيته في ذلك اليوم، فقد بدا لي أنه أعاد خلق

نفسه في واحدة من أكثر قصصه القصيرة إتقاناً «**السماء الأخرى**»، من خلال شخصية أمريكي لاتيني في باريس يحضر بدافع الفضول المحض عمليات تنفيذ أحكام الإعدام على المقصلة. وقد وصفه كورتاثار، كما لو أنه فعل ذلك قبالة مرآة، على النحو التالي: «له ملامح نائية وفي الوقت ذاته ثابتة بصورة مثيرة للفضول. وجه شخص تجمد في إحدى لحظات حلمه ويأبى القيام بالخطوة التي تعيده إلى اليقظة». وشخص قصته يمضي ملتفاً بعباءة سوداء وطويلة، مثل معطف كورتاثار نفسه عندما رأيته أول مرة، ولكن الراوي لا يجرؤ على الاقتراب منه ليسأله عن أصله، خوفاً من الغضب البارد الذي يمكن أن يتلقى به هو نفسه مثل ذلك الاستجواب. والغريب أنني أنا نفسي كذلك ما كنت سأتجرأ على الاقتراب من كورتاثار في ذلك المساء في مقهى الأولد نافي Old Navy، بسبب الخوف نفسه. رأيته يكتب طوال أكثر من ساعة، دون لحظة توقف للتفكير، ودون تناول أي شيء سوى نصف كأس من المياه المعدنية، إلى أن بدأ الظلام يخيم على الشارع، فخبأ القلم في جيبه وخرج والدفتر تحت إبطه كأنه التلميذ الأطول قامة والأشد نحولاً في العالم. في المرات الكثيرة التي التقينا فيها بعد سنوات، كان

الشيء الوحيد الذي تغيّر فيه هو اللحية الكثة والقاتمة، إذ إلى ما قبل قرابة أسبوعين من موته كانت الأسطورة بأنه خالد تبدو حقيقية، لأنه لم يتوقف قطّ عن النمو، وظل يحتفظ على الدوام بالسن نفسها التي ولد بها. ولم أتجرأ قط على سؤاله إن كان ذلك صحيحاً، كما أنني لم أحدثه عن أنني في خريف عام ١٩٥٦ الحزين رأيته، دون أن أتجرأ على التكلم معه، في ركنه في الأولد نافي، وأعرف أنه حيثما يكون الآن سيشتم أمي على خجلي. الآلهة تبث في النفوس الاحترام، والتقدير، والمحبة، وتبث بالطبع الحسد الشديد أيضاً. وقد كان كورتاثار يوحي بهذه المشاعر كلها كما قلة قليلة من الكتّاب، ولكنه يوحي فوق ذلك بشيء آخر أقل تواتراً: الورع. لقد كان، ربما دون أن يقصد ذلك، الأرجنتيني الذي جعل الجميع يحبونه. ومع ذلك، أتجرأ على التفكير في أنه إذا كان الموتى يموتون، فلابد أن يكون كورتاثار آخذاً في الموت من جديد خجلاً من الذهول العالمي الذي سببه موته. لم يكن هناك من يخشى أكثر منه، سواء في الحياة الواقعية أم في الكتب، من تشريفات ما بعد الوفاة، ومن مظاهر الأبهة الجنائزية. بل أكثر من ذلك: لقد فكرتُ على الدوام في أن الموت نفسه يبدو غير محتشم. في مكان ما من كتابه ***حول اليوم في ثمانين عالماً*** لا تتمكن جماعة من

الأصدقاء من كبح الضحك حيال الحسد بأن صديقاً عادياً ارتكب سخرية الموت. ولهذا، لأنني عرفته وأحببته كثيراً، فإنني أقاوم المشاركة في التحسر على خوليو كورتاثار ورثائه.

إنني أُفضل مواصَلة التفكير فيه مثلما يرغب هو نفسه دون شك، بالبهجة الفسيحة بأنه قد وُجد في الدنيا، وبالسعادة العميقة بأنني تعرفت إليه، والامتنان لأنه ترك لنا في العالم مؤلفات ربما لم تكتمل ولكنها بديعة وغير قابلة للتدمير مثلما هي ذكراه.

أمريكا اللاتينية موجودة

كونتادورا، بنما، ٢٨ آذار ١٩٩٥

انتظرتُ الدور الأخير لأتكلم، لأنني عند تناول الفطور يوم أمس لم أكن أعرف شيئاً مما تعلمته خلال بقية اليوم. أنا مُحدّث مهووس، وهذه المبارزات هنا هي مونولوجات بلا هوادة، تُحظر فيها متعة الأسئلة والردود. يدون أحدنا ملاحظات، يطلب الكلمة، ينتظر، وعندما يأتي دوره يكون الآخرون قد قالوا ما يريد قوله. لقد قال لي مواطني أوغسطو راميريث في الطائرة إنه من السهل معرفة متى يصبح المرء عجوزاً لأن كل ما يقوله يوضحه بقصة طريفة. فقلت له إذا كان الأمر كذلك، فأنا ولدتُ عجوزاً، وكتبي كلها شيخوخية. والدليل على ذلك هي هذه الملاحظات.

المفاجأة الأولى قدمها إلينا الرئيس لاكاييه بالكشف عن أن تسمية أميركا اللاتينية ليست فرنسية. لقد كنت أظن على الدوام أنها كذلك، ولكنني على الرغم من كل ما بذلته من تفكير لم أتذكر أين تعلمت

ذلك، ولا يمكن لي إثباته على أي حال. بوليفار لم يستخدم التعبير. كان يقول أميركا دون أية صفة أخرى، قبل أن يستحوذ الأمريكيون الشماليون على اسم أميركا لهم وحدهم. غير أن بوليفار، بالمقابل، ضغط هويتنا في خمس كلمات ليُعرِّفنا في «**رسالة إلى خامايكا**»: أننا نشكل جنساً بشرياً مصغراً. هذا يعني أنه ضَمَّن في قوله كل ما يظل خارجاً في تعريفات أخرى: الأصول المتعددة، لغات السكان الأصليين عندنا، ولغات السكان الأصليين الأوروبية: الإسبانية، والبرتغالية، والإنكليزية، والفرنسية، والهولندية.

في عقد الأربعينيات استيقظوا في أمستردام على خبر غير معقول بأن هولندا تشارك في منافسة عالمية بلعبة البيسبول ــ وهي رياضة غريبة عن الهولنديين ــ وما حدث هو أن كوراساو [المستعمرة الهولندية آنذاك] كانت على وشك أن تكسب البطولة العالمية في أميركا الوسطى والكاريبي. وبمناسبة الحديث عن الكاريبي، أظن أن منطقتها قد حُددت بصورة سيئة، لأنها يجب ألا تُحدد في الواقع كمنطقة جغرافية وإنما ثقافية. يجب أن تبدأ من جنوبي الولايات المتحدة وتمتد حتى شمالي البرازيل. فأميركا الوسطى التي نفترض أنها باسفيكية، ليس فيها الكثير من الباسفيكية، وثقافتها كاريبية.

وستكون لهذه الدعوة الشرعية على الأقل فائدة أن يدخل فوكنر وجميع كبار كتّاب جنوبي الولايات المتحدة كجزء من أخوية الواقعية السحرية. لقد أعلن جيوفاني بابيني، في الأربعينيات أيضاً، أن أميركا اللاتينية لم تُضف شيئاً إلى الإنسانية، ولا حتى مجرد قديس واحد، كما لو أنه يرى ذلك أمراً ضئيلاً. وقد كان مخطئاً في قوله، إذ كانت لدينا القديسة روسا دي ليما، ولكنه لم يُدخلها في حسابه، ربما لأنها امرأة. وتأكيده يوضح على أحسن وجه الفكرة التي كوّنها عنا الأوروبيون على الدوام: كل ما لا يشبههم هو خطأ ويفعلون كل شيء لتصويبه على طريقتهم، مثل الولايات المتحدة. لقد ضاق سيمون بوليفار ذرعاً بالنصائح والشروط، فقال: «دعونا نعيش عصرنا الوسيط بهدوء».

لم يعان أحد مثله من ضغوط أوروبا التي كانت قد أصبحت قديمة بشأن النظام الذي عليه أن يختاره، ملكية أو جمهورية. لقد كُتب الكثير عن أحلامه في حمل تاج. والحقيقة أن النظام الملكي في ذلك الحين، على الرغم من الثورتين الأمريكية الشمالية والفرنسية، لم يكن بالنظام الذي مضى زمانه كما يُخيل إلينا نحن جمهوريو هذه الأيام. وقد فهم بوليفار الأمر على هذا النحو وكان يعتقد أن نظام

الحكم ليس مهماً إذا كان يخدم الحلم بأميركا مستقلة ومتكاملة. هذا يعني، كما يقول هو نفسه، الدولة الأكبر والأغنى والأقوى في العالم. وكنا قد وقعنا ضحايا لحرب بين عقائد مازالت تعصف بنا، مثلما ذكّرنا سيرخيو راميريث: يسقط بعضها وتبرز أخرى، حتى لو كانت مجرد إثبات للغيبة، كما هي انتخابات الديمقراطيات.

ومثال جيد على هذا نجده في كولومبيا. يكفي أن توجد انتخابات تتم في موعدها الدقيق لإضفاء الشرعية على الديمقراطية، لأن المهم هو الطقوس، دون الاهتمام كثيراً بعيوبها: الزبائنية، والفساد، والغش، وتجارة الأصوات. لقد قال خايمي باتيمان، قائد حركة M-19: «السيناتور لا يجري اختياره بسبعين ألف صوت وإنما بسبعين ألف بيزو. فمنذ قليل، في مدينة كارتاخينا، صرخت بي بائعة فواكه: «أنت مدينٌ لي بسبعة آلاف بيزو!». وتفسيرها هو أنها أخطأت بعدم التصويت لمرشح التبس عليها اسمه مع اسمي، وقد انتبهتْ إلى ذلك في ما بعد. وما الذي يمكنني أن أفعله أنا؟ دفعتُ لها حقها بالسبعين ألف بيزو».

مصير الفكرة البوليفارية عن الوحدة الاندماجية يبدو محط شك أكثر فأكثر، اللهم إلا في الفنون والآداب التي تتقدم في التكامل الثقافي

بمجازفة منها. عزيزنا فيدريكو مايور يفعل خيراً عندما يقلق من صمت المثقفين، ولكن ليس من صمت الفنانين الذين ليسوا في نهاية المطاف مثقفين وإنما عاطفيين. فهم يعبرون عن أنفسهم بالصراخ من ريو برافو في شمالي قارتنا حتى باتاغونيا في الجنوب، بموسيقانا، وبرسمنا، وبالمسرح والرقص، وبالروايات والروايات التليفزيونية. وقد قال فليكس ب. كاغنيت، أبو الروايات الإذاعية: «أنا أنطلق من قاعدة أن الناس يريدون البكاء، والشيء الوحيد الذي أفعله هو تقديم الذريعة لهم». إن أشكال التعبير الشعبية هي الأكثر بساطة وغنى في التعدد اللغوي القاريّ. وعندما يتحقق تكاملنا السياسي والاقتصادي، وهو ما سيحدث، سيكون التكامل الثقافي قد صار واقعاً لا رجعة عنه منذ زمن. فحتى في الولايات المتحدة، حيث تُنفق ثروات ضخمة على التغلغل الثقافي، بينما نحن لا ننفق سنتافو واحداً، نغيّر لهم لغتهم، وطعامهم، وموسيقاهم، وتعليمهم، وأساليب العيش، والحب. هذا يعني أهم ما في الحياة: الثقافة.

واحدة من أعظم السعادات التي أحملها من يومي العمل دون راحة هذين هي لقائي الأول مع جاري الطيب، الوزير فرانسيسكو ويفورت الذي بدأ بمفاجئتنا بقشتاليته التي لا تشوبها شائبة. وبالمقابل

أتساءل إن كان هنالك حول هذه المائدة أكثر من شخصين يتكلمان البرتغالية. لقد أحسن الرئيس دي لامدريد القول إن قشتاليتنا لا يضايقها القفز عبر ولاية ماتو غروسو مادام البرازيليون يعملون، في جهد وطني للتفاهم معنا، على خلق لغة بُرتوسبانيول[1]، والتي ربما ستكون اللغة الخالصة لأميركا المتكاملة. ويدافع فرانسيسكو ويفورت، أو باتشو ويفورت كما نسميه في كولومبيا، أو بانتشو كما يدعونه في المكسيك، أو باكو كما يدعونه في أي حانة إسبانية، يدافع بحجج من الوزن الثقيل عن وزارة للثقافة. وأنا أعترض دون نجاح، وربما لحسن الحظ، على إقرار هذا الاقتراح في كولومبيا. وحجتي الأساسية هي أنه يساهم في جعل الثقافة رسمية وبيروقراطية.

ولكن يجب عدم التبسيط. ما أرفضه هو البنية الوزارية، كضحية سهلة للزبائنية و التحكم السياسي. وأقترح بدلاً منها مجلساً وطنياً للثقافة لا يكون تابعاً للحكومة وإنما للدولة، ويكون مسؤولاً أمام رئاسة الجمهورية أو أمام البرلمان، وبمنجى من الأزمات الحكومية الكثيرة، ومن دسائس القصور، ومن سحر الميزانية الأسود. شكراً لإسبانية باتشو الممتازة، وعلى الرغم من بُرتوسبانيوليتي المخجلة،

---

(١) مزج لكلمتي: برتغالية وإسبانية

ننتهي إلى الاتفاق على أنه ليس المهم هو الكيفية، مادامت الدولة تتولى المسؤولية الحرجة في الحفاظ على ميادين الثقافة وتوسيعها.

لقد قدم إلينا الرئيس دي لامدريد جميلاً عظيماً بتناوله مأساة تجارة المخدرات. وفي رأيه أن الولايات المتحدة توفر في كل يوم مؤونة لما بين عشرين وثلاثين مليون مدمن مخدرات دون أدنى عقبة، وبخدمة توصيل إلى المنازل تقريباً، كما لو أنها الحليب، أو الصحف، أو الخبز. وهذا ممكن التحقيق فقط من خلال مافيات أقوى من المافيات الكولومبية وبفساد أكبر من فساد السلطات في كولومبيا. إن مشكلة تجارة المخدرات تمسنا، طبعاً، نحن الكولومبيين بصورة عميقة جداً. ذلك أننا المذنبون الوحيدون تقريباً في تجارة المخدرات، إننا المذنبون الوحيدون في أن الولايات المتحدة تمتلك ذلك السوق الاستهلاكي الكبير، والذي تزدهر بفضله، لسوء الحظ، صناعة المخدرات في كولومبيا. لديّ انطباع بأن تجارة المخدرات هي مشكلة خرجت من يد البشرية. وهذا لا يعني أننا يجب أن نكون متشائمين ونعلن هزيمتنا، وإنما يجب أن تتواصل مكافحة المشكلة انطلاقاً من وجهة النظر هذه وليس انطلاقاً من الرش بالمبيدات.

كنتُ قبل وقت قريب مع جماعة صحفيين أمريكيين شماليين على هضبة صغيرة لا يمكن أن تزيد مساحتها على ثلاثة أو أربعة هكتارات مزروعة بالخشخاش. وقد قُدم لنا هناك عرض تجريبي: رش المبيدات بطائرات هليوكوبتر، ورشها بطائرات عادية. وفي المرحلة الثالثة من الرش بالهليوكوبترات والطائرات، قدّرنا أنه يمكن لذلك أن يكلف أكثر من ثمن قطعة الأرض المزروعة. مما يخمد العزيمة معرفة أنه لا يمكن بأي حال مكافحة تجارة المخدرات بتلك الطريقة. وقد قلت لبعض الصحفيين الأمريكيين الشماليين الذين كانوا معنا إن ذلك التعقيم يجب أن يبدأ من جزيرة مانهاتن ومن مكاتب عمدة واشنطن. ووبختهم أيضاً لأنهم يعرفون، والعالم كله يعرف، ماهية مشكلة المخدرات في كولومبيا ـ كيف تُزرع، وكيف تُعالج، وكيف تُصدّر ـ لأننا نحن الصحفيين الكولومبيين قمنا بالتحري عن ذلك كله، ونشرناه، ووزعناه في العالم بأسرة. بل إن بعضنا دفعوا حياتهم ثمناً لذلك. وبالمقابل، لم يكلف صحفي أمريكي شمالي واحد نفسه مشقة إخبارنا كيف يتم إدخال المخدرات إلي الولايات المتحدة، وكيف يجري توزيعها وتسويقها الداخلي.

أظن أننا جميعنا قد انتهينا إلى الاتفاق مع النتيجة التي توصل إليها الرئيس السابق لاكاييه بأن خلاص هذه الأمريكات يكمن في التربية. وهي النتيجة التي توصلنا إليها في منتدى التأمل الذي أقامته اليونسكو العام الماضي، حيث تم التوصل إلى بلورة الفكرة الرائعة بشأن «الجامعة عن بُعد». وهناك كان عليّ أن أدعم مرة أخرى فكرة الالتقاط المبكر للكفاءات والمواهب التي تشكل حاجة ماسة للعالم. والأساس هو أنه إذا وُضعت أمام طفل مجموعة ألعاب مختلفة، سينتهي به الأمر إلى أخذ واحدة منها فقط، وسيكون واجب الدولة خلق ظروف تتيح ديمومة هذه اللعبة لذلك الطفل. وأنا أحد المقتنعين بأن هذه هي الصيغة السحرية للسعادة والحياة المديدة. أن يكون بإمكان كل شخص أن يعيش ويفعل ما يروقه فقط، من المهد إلى اللحد. وفي الوقت نفسه، نحن جميعنا متفقون، كما يبدو، على وجوب أن نكون متأهبين ضد ميل الدولة إلى تجاهل التعليم وإسناده إلى الجهات الخاصة. الحجة المضادة مُفحِمة: التعليم الخاص، سواء أكان جيداً أم سيئاً، هو الطريقة الأكثر فعالية للتمييز الاجتماعي.

نهاية سعيدة لسباق تتابع من أربع ساعات، يمكن لها أن تفيدنا في تبديد الشكوك حول حقيقة إن كانت أميركا اللاتينية موجودة، وهي

المشكلة التي رمانا بها الرئيس السابق لاكاييه وأغوسطو راميريث، منذ البدء، كقنبلة انشُطارية. حسن إذاً، بالحكم من خلال ما قيل هنا خلال هذين اليومين، لا مجال لأدنى قدر من الشك في أنها موجودة. ربما يكون قدرها الأوديبي مواصلة البحث إلى الأبد عن هويتها، وهذا سيكون قَدَراً خلاقاً يجعلنا مختلفين عن العالم. صحيح أن أميركا اللاتينية في حالة يرثى لها، مشتتة، وغير ناجزة، ودائمة البحث عن أخلاق للحياة، إلا أنها موجودة. والدليل؟ لقد توصلنا إليه في هذين اليومين: نحن نفكر إذاً نحن موجودون.

طبيعة مختلفة
في عالم مختلف عن عالمنا

سانتافي دي بوغوتا، كولومبيا، ١٢ نيسان ١٩٩٦

أول مرة سمعت فيها كلاماً عن العسكريين كنت في سن مبكرة جداً، عندما روى لي جدي قصة تبعث على القشعريرة عما سُمي آنذاك مجزرة عمال الموز. وهذا يعني عملية القمع بالرصاص لمظاهرة عمال موز كولومبيين في «اليونايتد فروت كومباني»، المنسية في محطة القطارات في ثيناغا. وجدي الذي كان صائغاً في المهنة وليبرالياً ذي عظم أحمر، وكان قد استحق رتبته ككولونيل في حرب الألف يوم، ضمن صفوف الجنرال رافائيل أوريبي أوريبي، ولمزاياه هذه حضر توقيع اتفاقية نيرلانديا التي وضعت حداً لنصف قرن من الحروب الأهلية الرسمية. وفي مواجهته، في الجانب الآخر من المنضدة، كان يجلس أكبر أبنائه، بصفته برلمانياً محافظاً.

أظن أن رؤيتي لمأساة مزارع الموز كما رواها لي كانت الأشد زخماً في سنواتي الأولى في الحياة، والأكثر ديمومة أيضاً. إلى حدّ أنني أتذكرها الآن كموضوع متسلط على الذهن يخص أسرتي وأصدقائها على امتداد طفولتي، وأنها كيّفت، بطريقة ما، حياتنا إلى الأبد. ولكن كان لها فوق ذلك أثر تاريخي بالغ، لأنها عجّلت بنهاية أكثر من أربعين عاماً من الهيمنة، وأثرت دون شك على التنظيم التالي للمهنة العسكرية.

ومع ذلك، فقد أثرت فيّ، أنا بالذات، إلى الأبد لسبب آخر، جاء وقته الآن: كانت تلك هي الصورة الأولى التي تكوّنت لديّ عن العسكريين، وكان لا بد من مرور سنوات طويلة لا لأبدأ بتبديل تلك الصورة، وإنما لأبدأ بالكدِّ بمحاولة اختزالها إلى أبعادها الحقيقية. فالواقع، على الرغم من جهودي الواعية للتطهر منها، أنه لم تُتح لي الفرصة قطّ لتبادل الحديث مع أكثر من نصف دزينة من العسكريين خلال خمسين عاماً، ومع قلة منهم توصلت إلى أن أكون تلقائياً وغير محترس. والانطباع بالريبة المتبادلة كان يعكر على الدوام تلك اللقاءات، ولم أستطع قطّ تجاوز فكرة أن الكلمات لا تعني الشيء نفسه لهم ولي، وأنه ليس لدينا في نهاية المطاف ما نتحدث فيه.

لا تحسبوا أنني كنت غير مبالٍ بهذه المشكلة. بل على العكس: إنها إحدى أعظم إحباطاتي. وأنا أتساءل دوماً أين هو الخطأ، أهو في العسكريين أم فيَّ أنا، وكيف يمكن تقويض ذلك الحصن من عدم التواصل. لن يكون الأمر سهلاً. ففي السنتين الأولين من دراستي الحقوق في الجامعة الوطنية ـ حين كنت في التاسعة عشرة من عمري ـ كان بين زملائي في الدراسة ضابطانِ، كلاهما برتبة ملازم في الجيش. (وكم أتمنى أن يكونا بينكم). كانا يأتيان بزيهما العسكري المتشابه تماماً، بلا أية شائبة، كلاهما معاً على الدوام وفي المواعيد الدقيقة. يجلسان جانباً، وقد كانا التلميذين الأكثر جدية ومنهجية، ولكنني كنت أشعر على الدوام أنهما في عالم مختلف عن عالمنا. إذا ما توجه إليهما أحدنا بالكلام، يبديان الاهتمام واللطف؛ ولكن بصورة رسمية منيعة: لا يقولان شيئاً أكثر مما يُسألان عنه. وفي فترات الامتحانات، كنا نحن المدنيين نقسم إلى جماعات من أربعة أشخاص لندرس في المقاهي، ونلتقي في حفلات الرقص أيام السبت، وفي منافسات رمي الحجارة الطلابية، وفي الحانات الهادئة، وفي مواخير تلك المرحلة الكئيبة، ولكننا لم نكن نلتقي مطلقاً، ولو مصادفة، بزميلينا العسكريين.

كان من المستحيل في النتيجة ألا أفكر في أنهما من طبيعة مختلفة. وفي العموم، أبناء العسكريين هم عسكريون، يعيشون في أحيائهم الخاصة، يلتقون في أنديتهم وكازينوهاتهم، عوالمهم تدور من الباب إلى الداخل. لم يكن سهلاً العثور عليهم في المقاهي، وفي أحيان نادرة في السينما، وكانت لهم هالة سرية تتيح التعرف إليهم حتى وهم بالملابس المدنية. طبيعة مهنتهم نفسها جعلتهم رحالة متنقلين، وقد منحهم ذلك فرصة التعرف على البلاد حتى في أبعد أركانها، من الداخل والخارج، كما لا يعرفها أحد آخر من مواطنيهم، ولكنهم بمشيئتهم الخاصة لا يملكون الحق في التصويت. وبفعل واجب أولي بحسن التربية تعلمتُ لمرات لا حصر لها التعرف إلى إشارات رتبهم كيلا أخطئ بها عند مصافحتهم، وكنت أتأخر في تعلمها وقتاً أطول مما احتاجه لنسيانها.

بعض الأصدقاء الذين يعرفون أحكامي المسبقة هذه يظنون أن زيارتي لكم هي أغرب عمل قمت به في حياتي. على العكس، فهوسي بمختلف أشكال السلطة أكثر من مجرد أدبي ــ أشبه بهوس أنثربولوجي ــ منذ أن روى لي جدي مأساة ثيناغا. لقد تساءلتُ مرات كثيرة عما إذا لم يكن ذلك هو الأصل في خطّ موضوعي

يخترق مركز كتبي كلها. في ***عاصفة الأوراق*** ، وهي حالة نقاهة القرية بعد خروج شركات الموز، وفي الكولونيل الذي ليس لديه من يكاتبه، وفي ***ساعة الشوم*** التي هي حول استخدام العسكريين في قضية سياسية، وفي الكولونيل أوريليانو بويندا الذي يكتب أشعاراً في خضم حروبه الستة والثلاثين، وفي البطريرك ذي المئتين وبضع سنوات الذي لم يتعلم الكتابة قط. منذ أول كتاب حتى آخر هذه الكتب ـ وآمل أن يكون كذلك في كتب أخرى مقبلة ـ توجد حياةٌ من الأسئلة حول طبيعة السلطة.

ومع ذلك، أظن أن وعيي الحقيقي حول هذا كله بدأ خلال كتابتي ***مئة عام من العزلة***. وكان أكثر ما يشجعني آنذاك هو إمكانية إحقاق الحق التاريخي لضحايا المأساة، خلافاً للتاريخ الرسمي الذي أعلن أنها انتصار للقانون والنظام. ولكن تلك الإمكانية كانت مستحيلة: لم أستطع العثور على أي شهادة مباشرة أو بعيدة على أن الموتى لم يكونوا أكثر من سبعة أشخاص، وأن حجم المأساة لم يكن ما تتناقله الذاكرة الجماعية. ولكن ذلك لا يقلل، بأي حال طبعاً، من ضخامة الكارثة بالمقارنة مع حجم البلاد.

يمكن لحضراتكم أن تسألوني، ومعكم كل الحق، لماذا عمدتُ، بدل أن أرويها بأبعادها الواقعية، إلى تضخيمها إلى حجم ثلاثة آلاف قتيل جرى نقلهم في قطار من مئتي عربة لرميهم في البحر. والسبب، في رموز الشعر، بسيط جداً: كنتُ أعمل في بُعد لم تكن شركات الموز فيه رعباً تاريخياً في أي مكان بعينه، وإنما حدثاً بأبعاد خرافية، حيث الضحايا لم يكونوا أنداداً، ولم تكن للجلادين وجوه أو أسماء، وربما لم يكن أحد بريئاً. من تلك المبالغة جاءني البطريرك العجوز يجر مهرته الوحيدة في قصر ممتلئ بالأبقار.

كيف يمكن أن يكون ذلك بطريقة أخرى؟ فالشخصية الأسطورية الوحيدة التي أنتجتها أميركا اللاتينية هي شخصية الدكتاتور العسكري في نهاية القرن الماضي وأوائل القرن الحالي. كثيرون من أولئك الدكتاتوريين كانوا، وهذا صحيح، زعماء ليبراليين انتهى بهم الأمر إلى التحول إلى طغاة رهيبين. وأنا متأكد من أنه لو قيض للكولونيل أوريليانو بوينديا أن يكسب ولو حرباً واحدة من حروبه الستة والثلاثين، لتحول إلى واحد منهم.

ومع ذلك، عندما أنجزتُ حلم الكتابة عن الأيام الأخيرة لبطل التحرير سيمون بوليفار في ***الجنرال في متاهته***، كان علي أن ألوي

عنق بجعة الاختلاق. فالمسألة تتعلق برجل من عظم ولحم وذي قامة هائلة يخوض المعركة ضد جسده المنهوك، دون أي شهود آخرين سوى معيته من ضباط شباب رافقوه في جميع حروبه وكان عليهم أن يرافقوه حتى الموت. وقد كان عليّ أن أعرف كيف كان في الواقع، وكيف كان كل واحد منهم، وأظن أنني اكتشفت ذلك بأقرب صورة ممكنة في رسائل بطل التحرير الكاشفة والأخاذة. وأعتقد، بكل تواضع، أن ***الجنرال في متاهته*** شهادة تاريخية ملتفة بزينة لا تُقاوم من الشعر.

حول ألغاز الأدب هذه أرغب أن أواصل مع حضراتكم الآن الحوار الذي بدأه أصدقاء آخرون في هذه الأيام. من شجعوا عليه من الجانب العسكري يعرفون أنني لست غريباً عن هذه الفكرة الضرورية، وأن رغبتي الوحيدة هي أن تزدهر. وقد تكلم كل محاضر حول اختصاصه. وأنا لا اختصاص لي سوى الآداب، وحتى في هذا الاختصاص لست إلا تجريبياً دونَ أي تكوين أكاديمي، ولكنني أشعر بأنني قادر على تسجيل حضراتكم في جيوش الأدب التي ليست مسالمة على الدوام. ومن أجل البدء، أريد أن أترك لكم جملة واحدة فقط: «أظن أن حياتنا جميعاً ستكون أفضل لو أن كل واحد من حضراتكم يحمل كتاباً في جعبته على الدوام».

الصحافة: أفضل مهنة في العالم

لوس أنجلس، الولايات المتحدة،

٧ تشرين الأول ١٩٩٦

سُئلت إحدى الجامعات الكولومبية ما هي اختبارات الأهلية والموهبة التي تُجرى لمن يرغبون في دراسة الصحافة، وكان الجواب حاسماً: «الصحفيونُ ليسو فنانين». أما تأملاتي هذه، على العكس من ذلك، فتستند بالتحديد إلى اليقين بأن الصحافة المكتوبة هي جنس أدبي. السيئ في الأمر أن الطلاب والكثير من الأساتذة لا يعرفون ذلك، أو أنهم لا يصدقونه. وربما هذا هو السبب في عدم التحديد الدقيق للأسباب التي قدمها معظم الطلاب لتفسير قرارهم في دراسة الصحافة. لقد قال أحدهم: «اخترت علوم الاتصال لأنني شعرت أن وسائل الاتصال تخفي أكثر مما تظهر». وقال آخر: «لأنه أفضل طريق إلى السياسة». واحد منهم فقط عزا اختياره إلى أن شغفه بأن يُخبر يفوق شغفه بأن يكون متلق للمعلومات.

منذ حوالي خمسين عاماً لم تكن مدارس الصحافة قد راجت بعد. كان التعلم يتم في قاعات التحرير، وفي المطابع، وفي المقهى المواجه للمبنى، وفي حفلات السهر أيام الجمعة. كانت الجريدة بأسرها مصنعاً يُكَوِّن ويُخبِر دون أخطاء، ويولد آراء ضمن أجواء مشاركة تحفظ الأخلاق في مكانها. فقد كنا نحن الصحفيين نمضي معاً على الدوام، نعيش حياة مشتركة، وكنا جد متعصبين للمهنة إلى حدّ أننا لم نكن نتحدث عن شيء سوى المهنة نفسها. كان العمل يأتي معه بصداقة جماعية لا تترك سوى هامش ضئيل للحياة الخاصة. لم يكن ثمة وجود لمجالس التحرير المؤسساتية، ولكن في الساعة الخامسة مساءً، ودون دعوة رسمية، كان فريق العمل كله يأخذ استراحة تنفس من ضغوط اليوم، ويتوافد الجميع لتناول القهوة في أي مكان من مكاتب التحرير. كانت جلسات سمر مفتوحة تُناقش فيها على الساخن موضوعات كل قسم وتُوضع اللمسات الأخيرة على طبعة الغد. ومن لا يتعلمون في تلك الجامعات الجوالة والحماسية المتواصلة لأربع وعشرين ساعة يومياً، أو من يضجرون من كثرة الكلام في الشأن نفسه، فإنما لأنهم يريدون أن يكونوا صحفيين أو يظنون أنهم صحفيون، لكنهم ليسوا كذلك في الواقع.

كانت وسائل الاتصال الوحيدة هي الصحف والإذاعة. وقد تأخرت هذه الأخيرة كثيراً في اللحاق بالصحافة المكتوبة، ولكنها حين توصلت إلى ذلك، فعلته بشخصية خاصة بها، استعبادية وعلى شيء من النزق، بحيث استحوذت خلال وقت قصير على مستمعيها. وكان قد بدأ الإعلان عن التلفزيون كعبقرية سحرية توشك أن تصل ولا تصل، وكان من الصعب تخيل إمبراطوريته التي توصل إليها اليوم. لقد كانت المكالمات الخارجية آنذاك، عندما نتمكن من إجرائها، لا تتم إلا من خلال عمال مقاسم الهاتف. وقبل أن يُخترع التيليتيب والتلكس، كانت الاتصالات الوحيدة في مع بقية أنحاء البلاد ومع الخارج تقتصر على البريد والتلغراف. والحقيقة أن الرسائل من خلالهما كانت تصل دوماً.

كان يمكن لعامل راديو له استعدادات شهيد أن يلتقط بسرعة خاطفة أخبار العالم وسط صفير وأزيز فلكيين، ويمكن لمحرر ضليع أن يصوغ تلك الأخبار مزوداً إياها بتفاصيل دقيقة وحيثيات، مثلما يعاد بناء هيكل عظمي لديناصور انطلاقاً من فقرة واحدة منه. ولم يكن محظوراً سوى تفسير تلك الأخبار وتأويلها، لأنه اختصاص مقدس للمدير الذي تزعم افتتاحياته أنه هو من يكتبها، حتى لو لم تكن كذلك،

ودوماً بخط مشهور بتشابكه. وقد كان لمدراء تاريخيين، مثل دون لويس كانو في جريدة ***الاسبيكتادور***، أو كتّاب أعمدة مقروئين على نطاق واسع، مثل إنريكي سانتوس مونتيخو (***كاليبان***) في جريدة ***التيمبو***، كان لهم مصففي حروف لينوتيب شخصيين لحل رموز خطوطهم. والقسم الأكثر حساسية وأوسع شهرة هو الافتتاحية، في وقت كانت السياسة هي المركز العصبي للمهنة وميدان نفوذها الأعظم.

الصحافة يتم تعلمها بممارستها:

كانت الصحيفة آنذاك تتوزع على ثلاثة أقسام كبيرة: أخبار، تعليقات وتحقيقات، وأعمدة افتتاحيات. لم تكن المقابلات نوعاً صحفياً شائعاً جداً، ولم تكن تتمتع باستقلالية خاصة. بل كانت تُستخدم كمادة أولية للتعليقات والتحقيقات. وقد كان الأمر كذلك إلى حدّ أنهم مازالوا إلى الآن في كولومبيا معتادين على تسميتها تحقيقات بدلاً من مقابلات. وكانت المهمة الأشد حرماناً هي مهمة كاتب التحقيقات التي تعني ضمناً المتدرب وحمّال الطوب في آن واحد. ومن هناك يتوجب الصعود عبر سلّم الخدمة الجيدة والأعمال الشاقة لسنوات طويلة حتى بلوغ جسر القيادة. وقد برهن الوقت والمهنة نفسها على أن الجهاز العصبي للصحافة يدور في الواقع في اتجاه معاكس.

لم يكن الانضمام إلى الأخوية يتطلب أي شرط خلاف الرغبة في أن يكون المرء صحفياً، ولكن حتى أبناء مالكي الصحف العائلية ـ وهم الأكثرية ـ كان عليهم أن يختبروا أهليتهم في الممارسة. وقد كان هنالك شعار يعبر عن الأمر برمته: الصحافة يجري تعلمها بممارستها. فكان يصل إلى الصحف طلاب فاشلون في اختصاصات أخرى أو باحثون عن وظيفة لتتويج مسيرة دراستهم، أو مهنيون في أية اختصاصات أخرى اكتشفوا متأخرين ميلهم الحقيقي. وكان لا بد من امتلاك روح مقدامة، لأن القادمين الجدد يمرون بطقوس للقبول أشبه بتلك التي يمر بها المنتسبون إلى البحرية الحربية: سخريات قاسية، مكايد لاختبار الخبث، إعادة كتابة إجبارية للنص نفسه في احتضارات آخر ساعة: إنها قدرة السخرية الإبداعية المجيدة. لقد كانت الصحافة آلية تأهيل وإخبار دون أخطاء، تولّد رأياً ضمن جو مشاركة يحفظ المعنويات في مكانها. وقد أثبتت التجربة أن كل شيء كان سهل التعلم فوراً لمن يمتلك حس الصحافي وحساسيته وقدرته على التحمل. كانت ممارسة المهنة نفسها تفرض على المتدرب ضرورة أن يُكوّن لنفسه ركيزة ثقافية، ويتولى جو العمل نفسه تنشيطها. لقد كانت القراءة إدماناً مهنياً. والمتعلمون ذاتياً يكونون في العادة نهمين وسريعين، وقد كانوا في تلك

الأزمنة أكثر نهماً وسرعة كي يرفعوا عالياً جداً أفضل مهنة في العالم، مثلما كانوا يسمونها هم أنفسهم. وألبيرتو يراس كامارغو الذي كان صحفياً على الدوام، ورئيساً للجمهورية مرتين، لم يكن قد حصل حتى على شهادة البكالوريا.

لقد تبدل شيء ما منذ ذلك الحين. ففي كولومبيا توجد في التداول سبع وعشرون بطاقة اعتماد صحفية، ولكن أغلبيتها العظمى ليست بين أيدي صحفيين ممارسين، وإنما تُستخدم كجواز مرور للحصول على خدمات رسمية، أو لعدم الوقوف بالدور، أو للدخول مجاناً إلى الاستادات، ولاستخدامات أخرى في نشاطات أيام الآحاد. ومع ذلك فإن الأغلبية العظمى من الصحفيين، وبينهم بعض الأوسع شهرة، لا يملكون ولا يريدون ولا يحتاجون إلى بطاقات الاعتماد. هذه البطاقات خُلقت في الفترة نفسها التي أُنشئت فيها أولى كليات علوم الاتصال، كرد فعل، بالضبط، ضد الواقع الشكلي في أن الصحافة تفتقر إلى الاحترام الأكاديمي. إذ لم يكن لدى معظم المهنيين أية شهادات، أو لديهم شهادات في أي مهنة، باستثناء التي يمارسونها.

جرت مقابلة طلاب ومعلمين، صحفيين، مدراء وإداريين من أجل هذه التأملات، وقد بينوا أن دور الأكاديمية مثبط للعزيمة. إذ

قالت جماعة طلاب مستبقين أطروحة مستواهم الدراسي : «يلاحظ انعدام مبالاة بالفكر النظري وصياغة المفاهيم». جزء من المسؤولية يتحمله المعلمون لأنهم يفرضون النص كواجب إجباري، ويقطعون أوصال الكتب بتعسف التصوير الفوتوكوبي لفصولها، دون أي مساهمة خاصة.» وانتهوا إلى القول، بمزاح أكثر مما بمرارة: «نحن مهنيي التصوير الفوتوكوبي». والجامعات نفسها تعترف بمناحي قصورٍ جلية في التأهيل الأكاديمي ولاسيما في العلوم الإنسانية. فالطلاب يأتون من الثانوية وهم لا يعرفون التحرير، ولديهم مشكلات كبيرة في النحو والإملاء، وصعوبات في الفهم المتروي للنصوص. وكثيرون منهم يخرجون مثلما جاؤوا. «إنهم أسرى الاستسهال وعدم التروي»، هذا ما قاله أحد المعلمين، وأضاف : «عندما يُطلب منهم مراجعة مقال صاغوه هم أنفسهم وإعادة النظر فيه، يتمنعون في مراجعته». إنه يظن أن اهتمام الطلاب الوحيد هو المهنة كهدف بحد ذاته، منفصل عن الواقع وعن مشكلاتهم الحياتية، ويتقدم في اندفاع بطولي على ضرورة البحث والخدمة. «الوصول إلى مكانة رفيعة هو هدفهم الأساسي من الحياة المهنية»، يختتم كلامه أحد المعلمين الجامعيين. «لا يهتمون كثيراً في أن يكونوا

يغتنوا روحياً بالممارسة المهنية، وإنما يريدون إنهاء الدراسة الجامعية بنجاح من أجل تغيير وضعهم الاجتماعي».

معظم الطلاب الذين جرى استجوابهم يشعرون بخيبة أمل من المدرسة، ولا يرتجف صوتهم وهم يدينون معلميهم بأنهم لم يرسخوا في أذهانهم الفضائل التي يطالبونهم بها الآن، وبخاصة الفضول تجاه الحياة. وإحدى المهنيات الممتازات التي نالت عدة جوائز، كانت أكثر وضوحاً: «قبل كل شيء، وعند إنهاء الدراسة الثانوية، يجب أن تكون الفرصة قد أتيحت لأحدنا في ارتياد عدة ميادين وفيها يجب عليه أن يعرف ما الذي يُقلقه. ولكن الأمر ليس كذلك في الواقع: يجب على أحدنا أن يردد جيداً ما تعطيه المدرسة إياه، دون أي تغيير، كي يتمكن من النجاح».

هنالك من يتباهون بأنهم قادرون على قراءة وثيقة سرية موضوعة بالمقلوب على منضدة وزير، أو تسجيل حوارات عرضية دون تنبيه مسبق لُمحاورهم، أو استخدام محادثة، اتُفق مسبقاً على أنها سرية، في خبر. والأخطر هو أن هذه الاعتداءات الأخلاقية تتوافق مع مفهوم الجرأة في المهنة، وتُتخذ بوعي وتقوم على الفخر بتقديس إحراز السبق بأي ثمن وقبل أي شيء آخر. لا يؤثر فيهم مبدأ أن السبق الجيد ليس ما

يُقدم أولاً وإنما ما يُقدم بصورة أفضل. وفي الجانب المقابل لهؤلاء، هنالك من يتخذون الوظيفة كأريكة بيروقراطي، مبهورين بتكنولوجيا بلا قلب تكاد لا تأخذهم هم أنفسهم في الاعتبار.

شبح يخيم على العالم: آلة التسجيل:

قبل اختراع آلة التسجيل، كانت المهنة تمارس على أحسن وجه بثلاث أدوات لا غنى عنها هي واحدة في الواقع: دفتر الملاحظات، وأخلاق محصنة لا تتزعزع، وأذنين مازال كتّاب التحقيقات يستخدمونهما لسماع ما يقال لهم. كانت آلات التسجيل الأولى أثقل وزناً من الآلة الكاتبة، وكانت تُسجِّل على أشرطة ممغنطة تُلف على بكرات مثل خيوط الخياطة. وقد انقضى بعض الوقت قبل أن يستخدمها الصحفيون لمساعدة ذاكرتهم، وأكثر من ذلك أيضاً، ليعهد إليها البعض بالتفكير عنهم.

الحقيقة أن الرسالة المهنية والأخلاقية لآلة التسجيل مازالت قيد الاختراع. لابد لأحدهم أن يعلّم الصحفيين بأنها ليست بديلاً للذاكرة، وإنما هي تطوير لدفتر الملاحظات المتواضع الذي قدم خدمات طيبة في بدايات المهنة. فآلة التسجيل تسمع ولكنها لا تصغي، تُسجل ولكنها لا تفكر، إنها وفية ولكنها بلا قلب، ولا يمكن في نهاية المطاف لنسختها

الحرفية أن تكون موثوقة كمثل من يركز اهتمامه على كلمات مُحَدِّثه الحية، ويقومها بذكائه، ويقدّرها بأخلاقه. أما في الإذاعة ففائدتها هائلة لجهة الحرفية والمباشرة، غير أن كثيرين من صحفيي المقابلات لا يصغون إلى الإجابات كي يُفَكّروا بالسؤال التالي. وبالنسبة لمحرري الصحف يشكل تفريغ أشرطة التسجيل اختبار النار: فيهم يخلطون بين أصوات الكلمات، ويتعثرون في دلالة المعاني، ويغرقون في ضبط الكتابة، ويموتون باحتشاء في التركيب النحوي. ربما يكون الحل في العودة إلى دفتر الملاحظات المسكين كي يكتب الصحفي بذكائه أثناء التسجيل بينما هو يستمع.

آلة التسجيل هي المذنبة في التعظيم الوبيل للمقابلة الصحفية. فالإذاعة والتلفزيون، بسبب طبيعتهما بالذات، حوَّلا المقابلة إلى الجنس الصحفي الأسمى، ولكن يبدو أن الصحافة المكتوبة أيضاً تشارك في الفكرة الخاطئة بأن صوت الحقيقة ليس صوت الصحفي بقدر ما هو صوت من يقابله. لقد كانت المقابلة الصحفية على الدوام حواراً للصحفي مع شخص لديه ما يقوله أو يفكر فيه حول حدث معين. وكان الريبورتاج إعادة بناء دقيقة وصادقة للحدث، مثلما حدث في الواقع، كي يعرفه الجمهور كما لو أنه كان هناك. إنهما

جنسان صحفيان متشابهان وتكامليان، لا مسوغ لإبعاد أحدهما عن الآخر. ومع ذلك فإن قوة الريبورتاج الإخبارية والشاملة لا يمكن تجاوزها إلا بالخلية الأولية والحاسمة للمهنة، والوحيدة القادرة على أن تقول في لحظة الوميض كل ما هو معروف عن الخبر: الفلاش. أي إنّ إحدى المشاكل الحالية في ممارسة المهنة وتعليمها لا تتمثل في خلط أو تصفية الأجناس الصحفية التاريخية وإنما في منح كل منها مكانه الجديد وقيمته الجديدة في كل وسيلة اتصال على حدة. ولا بد أن يبقى أمر يبدو أنه منسي ماثلاً في الذهن على الدوام، وهو أن البحث الاستقصائي ليس جنساً صحفياً في المهنة وإنما الصحافة كلها يجب أن تكون بحثية من حيث التعريف.

تقدم مهم حدث خلال نصف القرن الماضي، حيث صار التعليق وإبداء الرأي يدخلان في الخبر وفي الريبورتاج، وصارت الافتتاحية تُثرى بمعلومات إخبارية. عندما لم تكن إجازة ذلك ممكنة، كان الخبر ملاحظة مقتضبة وفعالة، موروثة من برقيات التلغراف الخرافية. أما الآن، فإن فرض مقاس مكاتب الوكالات العالمية يسهل عمليات تعسف يصعب إثباتها. فالاستخدام المفرط لأقواس الاقتباس وتضمينها تصريحات مزيفة أو حقيقية يسمح بأخطاء بريئة أو

متعمدة، وبعمليات تحوير خبيثة وتحريفات مسمومة تمنح الخبر خطورة سلاح قاتل. فالاستشهاد بمصادر جديرة بالثقة، وبشخصيات حسنة الإطلاع عموماً، أو بموظفين كبار طلبوا عدم الكشف عن أسمائهم، أو بمراقبين يعرفون كل شيء ولكن لا أحد يراهم، يشكل حمايةٍ لكل أنواع الإساءات التي لا عقاب لها، لأن صاحبها يتحصن في حقه بعدم الكشف عن مصدره. وتزدهر في الولايات المتحدة، من جهة أخرى، إساءات من نوع: «يسود الاعتقاد بأن الوزير قد جرد جثة الضحية من مجوهراتها، لكن الشرطة نفت ذلك». فلا يبقى سوى القول: إن الضرر قد وقع. وعلى كل حال، يبقى العزاء في افتراض أن الكثير من هذه التجاوزات لأخلاق المهنة، وكثيراً غيرها مما يُلحق العار بصحافة هذه الأيام، ليس سببها دوماً انعدام الأخلاق، وإنما كذلك انعدام التمكن المهني.

استغلال المعيار للإنسان:

تبدو المشكلة في أن المهنة لم تتوصل إلى التطور بالسرعة نفسها التي تطورت بها أدواتها، وظل الصحفيون يبحثون عن الطريق بالتلمس في متاهة تكنولوجيا منفلتة من عقالها بلا ضابط نحو

المستقبل. ولابد أن الجامعات قد ظنت أن العيوب أكاديمية فأسست مدارس لم تعد تقتصر على الصحافة المكتوبة، وبحق، وإنما تشمل كافة وسائط الاتصال. وفي التعميم، أخذت من الشارع حتى التسمية المتواضعة التي اتخذتها المهنة منذ نشوئها في القرن الخامس عشر، ولم تعد تسمى الآن مدارس صحافة وإنما علوم الاتصال أو الاتصال الاجتماعي. ولابد أن يكون هذا في نظر صحفيي الزمن الغابر التجريبيين أشبه بأن يجد المرء نفسه تحت دوش الاستحمام مع البابا مرتدياً ملابس رائد فضاء.

هنالك في جامعات كولومبية أربعة عشر اختصاصاً لما قبل التخرج، واختصاصان اثنان لما بعد التخرج في علوم الاتصال. وهذا يؤكد قلقاً متزايداً وبالغ الطموح، ولكنه يخلف أيضاً الانطباع بمستنقع أكاديمي يُشبع الكثير من حاجات التعليم الحالية، ولكن ليس الحاجتان الأهم: الإبداع والممارسة.

الجوانب المهنية والمرتبطة بالوظائف التي تُعرض على المرشحين للعمل تبدو مصاغة بصورة مثالية حالمة على الورق. والاندفاع النظري الذي يبثه فيهم معلموهم يخمد مع أول اصطدام بالواقع، والزهو بشهادات التخرج لا يضعهم بمنجى من الكارثة. فالحقيقة أنه

يجب عليهم الخروج مؤهلين للتحكم بالتقنيات الجديدة وهم يخرجون خلاف ذلك: فالتقنيات هي التي تجرجرهم وتثقل عليهم بضغوط غريبة عن أحلامهم. إنهم يجدون مصالح كثيرة ومن كل نوع تعترض طريقهم، بحيث لا تبقى لديهم حماسة للتفكير، وأقل من ذلك لمواصلة التعلم.

إن اختبارات الانتقاء نفسها التي تُجرى لراغب في دراسة الهندسة أو الطب البيطري هي التي تطالب بها بعض الجامعات، ضمن المنطق الأكاديمي، للالتحاق ببرنامج اتصالات اجتماعية. ومع ذلك، فإن مقبولاً بنجاح في دراسته قال دون تحفظ: «لقد تعلمتُ الصحافة عندما بدأت العمل. صحيح أن الجامعة وفرت لي فرصة كتابة الصفحات الأولى، ولكن المنهجية تعلمتها في سياق العمل». وهذا عادي، طالما لا يُقبل أن الإبداع هو عماد الصحافة، وأنها تستدعي بالتالي تقويماً مماثلاً لتقويم الفنانين على الأقل.

نقطة حرجة أخرى هي أن بريق المؤسسات التكنولوجي لا يتوافق مع ظروف العمل، وأقل من ذلك مع آليات المشاركة التي كانت تعزز روح المهنة في الماضي. فصالة التحرير هي مختبر معقم ومقسم إلى حجيرات، حيث يبدو أن التواصل مع الظواهر الفلكية أسهل

من التواصل مع قلوب القراء. إن فقدان الأنسنة يندفع خبباً. والدراسة التي كانت على الدوام محددة ومؤطرة جيداً، لم يعد يُعرف الآن أين تبدأ وأين تنتهي وإلى أين تمضي.

إن التلهف إلى استعادة الصحافة لسمعتها القديمة يُلحظ في كل مكان. ومن يحتاج إلى استعادة سمعتها أكثر من الجميع هم مالكو وسائل الاتصال، أكبر المستفيدين منها، والذين يشعرون بفقدان المصداقية في أشد المواقع إيلاماً. وتشكل كليات الاتصال الاجتماعي هدفاً لانتقادات حادة، وهي انتقادات ليست دون مسوغ دوماً. وربما كان سوء طالعها في أنها تُعلِّم أشياء كثيرة مفيدة للمهنة، ولكنها تُعلِّم القليل جداً من المهنة نفسها. ربما يجب عليها أن تلح في برامجها الإنسانية، وإن تكن أقل طموحاً وحسماً، على ضمان ركيزة ثقافية لم يحصل عليها الطلاب في المرحلة الثانوية. عليها أن تعزز الاهتمام بالكفاءات والمواهب، وربما عليها أن تجزئ الدراسة إلى اختصاصات منفصلة لكل وسيلة اتصال، لأنه من غير الممكن التحكم بالاختصاصات كلها على امتداد حياة بكاملها. كما أن دراسات ما بعد تخرج الهاربين من مهن أخرى تبدو مناسبة جداً لتنويع الأقسام المتخصصة التي اكتسبتها المهنة بفضل التقنيات

الجديدة، والتغيير الكبير الذي شهدته البلاد منذ طبع دون مانويل دي سوكورو رودريغث أول صحيفة أخبار قبل مئتين وأربعة أعوام.

ومع ذلك، يجب ألا تكون شهادات التخرج والبطاقات الصحفية هي الهدف النهائي، وإنما العودة إلى نظام التعليم الأولي من خلال ورش عملية في جماعات صغيرة، مع استفادة نقدية من التجارب التاريخية، في إطارها العام كخدمة عامة. وعلى وسائل الاتصال، من أجل مصلحتها الخاصة، أن تساهم بعمق في تجارب مماثلة، مثلما يفعلون في أوروبا. سواء في قاعات تحريرها أو في مطابعها، أو في أمكنة مشيدة لهذا الغرض بالذات، مثلما هي حجرات الاختبارات الجوية التي تُستنسخ فيها محاكاة لكافة حوادث الطيران الطارئة كي يتمكن الطالب من تعلم مواجهة الكوارث قبل أن تعترض طريقه في الحقيقة. فالصحافة شغف لا يرتوي ولا يمكن لها أن تُهضم وتؤنسن بمواجهتها الواقع بصورة مواربة. لا يمكن لمن لم يعانها أن يتخيل هذه العبودية التي تتغذى على طوارئ الحياة. ولا يمكن لمن لم يعشها أن يتصور مجرد النبضِ الخارق للخبر، ورعشة لذة السبق، ودمار الفشل الأخلاقي. لا يمكن لمن لم يولد من أجل هذا ولمن ليس مستعداً للموت من أجله أن يواظب في مثل هذه المهنة النهمة

والعصية على الفهم، والتي ينتهي عملها بعد كل خبر، كما لو أنه انتهاء إلى الأبد، ولا تمنح لحظة سلام مادامت لم تعد للبدء في الدقيقة التالية بحمية أشد من أي وقت آخر.

قارورة إلى البحر من أجل إله الكلمات

ثاكاتيكاس، المكسيك، ٧ نيسان ١٩٩٧

في الثانية عشرة من عمري أوشكت دراجةٌ على صدمي. وقد أنقذني سيد كاهن كان يمر هناك بصرخة: «احذر!». سقط الدرّاج على الأرض. وقال لي السيد الكاهن دون أن يتوقف: «أرأيت ما هي سلطة الكلمة؟». لقد عرفتُ الأمر يومذاك. ونحن نعرف الآن، فوق ذلك، أن أبناء المايا كانوا يعرفون الأمر، وبدقة بالغة، منذ أزمنة المسيح، حتى إنه كان لديهم إله خاص بالكلمات.

لم تكن تلك السلطة كبيرة قطّ بالقدر الذي هي عليه اليوم. فالبشرية ستدخل ألفيتها الثالثة تحت سلطان الكلمات. ليس صحيحاً أن الصورة آخذة بالحلول محل الكلمات، ولا أنها قادرة على القضاء عليها. بل على العكس، إنها تزيدها قوة: لم يكن في العالم قطّ كثرة من الكلمات واسعة النطاق والسلطة والخيار كما هي الحال في بابل الحياة الحالية الشاسعة. كلمات مبتكرة امتهنتها أو قدستها

الصحافة والكتب التي تُستخدم وترمى ولوحات الإعلانات؛ إنها تتردد عبر الإذاعة، والتليفزيون، والسينما، والهاتف، ومكبرات الصوت العامة؛ يُصرخ بها بفرشاة نقاش على جدران الشارع أو يُهمس بها في المسامع في عتمة الحب. لا، لم تُهزم الكلمات: المهزوم الكبير هو الصمت. لقد صار للأشياء الآن أسماء كثيرة بلغات كثيرة إلى حدّ لم يعد من السهل معرفة كيف تُسمى في أي منها. فاللغات تتشتت متفلتة من أي إشبينة، مختلطة وممتزجة ببعضها بعضاً، منطلقة نحو قدر محتوم للغة عالمية.

على اللغة الإسبانية أن تتهيأ لدورة كبيرة في ذلك المستقبل الذي دونَ حدود. إنه حق تاريخي. ليس لهيمنتها الاقتصادية، كما هي لغات أخرى حتى اليوم، وإنما لحيويتها، وديناميكيتها الخلاقة، وسعة تجربتها الثقافية، وسرعة وقوة انتشارها، في ميدانها الخاص الممتد على اتساع تسعة عشر مليون كيلو متراً مربعاً، وأربعمئة مليون متكلم بها مع نهاية هذا القرن. وقد كان محقاً أحد مدرسي الآداب الهسبانية في الولايات المتحدة حين قال إن ساعات دروسه تنقضي في عمله وهو يترجم بين أمريكيين لاتينيين من بلدان مختلفة. مما يلفت الانتباه أن للفعل *pasar* أربعاً وخمسين معنى، وللعضو الجنسي

الذكري في جمهوريةِ الإكوادور مئة وخمسةُ أسماء، بينما كلمة *condoliente* التي تفسر نفسها بنفسها، والتي نحتاج إليها بشدة، لم تُخترع بعد. هناك شاب صحفي فرنسي تبهره الاكتشافات الشعرية التي يجدها في كل خطوة من حياتنا المنزلية. فطفل أرِقٌ لشحوب الخروف وحزنه المتقطع، يقول: «إنه يبدو فناراً». وامرأة ريفية من منطقة غواخيرا الكولومبية رفضت أن تتناول مغلى زهر النارنج لأن له طعم الجمعة الحزينة. ودون سيباستيان دي كوباروبياس، في قاموسه خالد الذكر، خلّف لنا مكتوباً بخط يده أن الأصفر هو لون العشاق. كم مرة لم نتذوق نحن أنفسنا قهوة لها مذاق نافذة، أو خبزاً له طعم الضغينة، أو حبة كرز لها مذاق قبلة؟ إنها براهين تأكيد لذكاء لغة لم يعد جلدها يتسع لها منذ زمن. لكن مساهمتنا يجب ألا تكون بحشرها في حزام، بل على العكس، يجب علينا تحريرها من قيودها المعيارية كي تدخل القرن الحادي والعشرين كدخول بطرس إلى بيته.

ويهذا المعنى أتجرأ على أن أقتراح أمام هذه الجلسة الحكيمة أن نبسّط قواعد اللغة قبل أن ينتهي الأمر باللغة إلى تبسيطنا. فلنؤنسن قوانينها، ولنتعلم من لغات السكان الأصليين التي ندين لها بالكثير، والتي مازال لديها الكثير مما تعلمنا إياه وتُغنينا به، ولنتمثل سريعاً وجيداً جديد المصطلحات التقنية والعلمية قبل أن تتسلل إلينا دون

هضم، ولنتفاوض بطيب قلب مع صيغ المصدر الرهيبة، وحالات *que* الوبائية، واستعمالات *deque* (*el dequeísmo*) الطفيلية، ولنُعِد إلى الفعل المضارع المنصوب الـ subjuntivo[1] التشديد في مقطعه الصوتي قبل الأخير بحيث نقول: *váyamos* بدلاً من *vayamos*، أو *cántemos* بدلاً من *cantemos*، أو الفعل المتناغم *muéramos* (نموت) بدلاً من فِعل *muramos* (نموت) المشؤوم. ولنُحِل إلى التقاعد قواعد ضبط التهجئة، رعب الكائن البشري منذ المهد: فلندفن الحرف *H* الذي يعود إلى أزمنة الرسم على الصخور ما قبل التاريخية، ولنوقّع اتفاق حدود ضابطة بين الحرفين G وJ، ولنفكر بعقلانية أكبر في استخدام علامات النبر، لأن أحداً لن يقرأ *lagrima* حيث يُكتب *lágrima*، أو يخلط بين *revolver* و*revólver*. وماذا بشأن حرفنا b في كلمة *burro* [حمار] وحرفنا v في كلمة *vaca* [بقرة]، الذين نقلهما إلينا أجدادنا الإسبان على أنهما حرفان اثنان في حين أن واحداً منهما يكفي؟[2]

إنها أسئلة ترد عفو الخاطر، بالطبع، مثل قوارير ترمى إلى البحر علي أمل أن تصل إلى إله الكلمات. وما لم تؤدِ هذه الأطروحات

---

(١) المضارع الـ subjuntivo: حالة تصريفية للفعل تجعل ممارسة العمل محل شك أو احتمال أو رغبة.

(٢) الحرفان b وv يقرآن باللفظ نفسه باللغة الإسبانية. وكذلك الحرفان g وj في حالات كثيرة.

الوقحة والهذيانية إلى أن ينتهي المطاف بذلك الإله وبنا نحن على السواء إلى التحسر، بحق، لأن دراجة العناية الإلهية تلك لم تصدمني وأنا في الثانية عشرة من عمري.

أحلام للقرن الحادي والعشرين

باريس، فرنسا، ٨ آذار ١٩٩٩

لقد أغضب الكاتب الإيطالي جيوفاني بابيني أجدادنا في الأربعينيات بجملة مسمومة «أميركا مصنوعة من فضلات أوروبا». وليس لدينا اليوم مسوغات للشك في صحة ما قاله وحسب، وإنما لشيء أكثر حزناً: إن الذنب يقع علينا.

لقد استشف سيمون بوليفار ذلك، وأراد أن يخلق لنا هوية خاصة في السطر العبقري من رسالته إلى خاميكا: «نحن جنس بشري مصغر». كان يحلم، وقد قال ذلك، بأن نكون الوطن الأكبر، والأغنى، والأقوى والأكثر وحدة على الأرض. ففي آخر أيامه، وبينما هو معذب بدين للإنكليز لم نستطع تسديده حتى الآن، ومعذب من جانب الفرنسيين الذين كانوا يحاولون أن يبيعوه آخر آثار ثورتهم، توسل إليهم يائساً: «دعونا نصنع عصورنا الوسطى بهدوء». لقد انتهى بنا الأمر إلى أن نكون مختبر أحلام خائبة.

فضيلتنا الكبرى هي القدرة الإبداعية، ولكننا لم نفعل مع ذلك سوى العيش على معتقدات معاد تسخينها وعلى حروب غريبة عنا، وأن نكون ورثة كريستوف كولومبس بائس عَثَر علينا مصادفة بينما هو يبحث عن الهند.

إلى ما قبل سنوات قليلة كان أسهل علينا أن نعرف بعضنا بعضاً في الحي اللاتيني في باريس مما في أي بلد من بلداننا. ففي مقاهي سان جيرمان كنا نبادل سيرناتات تشابولتيبيك بهبات رياح كومودورو ريفادافيا، وحساء ثعبان بحر بابلو نيرودا بساعات الغروب الكاريبية، نحنُّ إلى عالم غنائي حالم وناءٍ حيث ولدنا دون أن نتساءل حتى عمن نكون. أما اليوم فنحن نعرف ذلك، وليس هنالك من يستغرب أنه كان علينا أن نجتاز المحيط الأطلسي لنلتقي بأنفسنا في باريس.

وعلى حضراتكم، أنتم الحالمون الذين لم تتجاوزوا الأربعين من العمر، تقع مسؤولية المهمة التاريخية بتقويم هذه الاعوجاجات الهائلة. تذكروا أن أمور هذا العالم، ابتداء من عمليات زرع القلوب وحتى رباعيات بتهوفن، كانت في أذهان مبدعيها قبل أن توجد في الواقع. لا تنتظروا شيئاً من القرن الحادي والعشرين، لأن القرن

الحادي والعشرين هو الذي ينتظر كل شيء منكم. إنه قرن لا يأتي ناجزاً ومصنوعاً في مصنع وإنما يأتي مستعداً لأن تصوغوه أنتم على صورتنا وشاكلتنا، ولن يكون سلمياً ولنا إلا بقدر ما تكونون قادرين على تصوره كذلك.

الوطن محبوب وإن كان بعيداً

ميدلين، كولومبيا، ١٨ أيار ٢٠٠٣

«كل هذه المحن التي تصيبنا هي إشارة إلى أن الأجواء ستهدأ وستحدث الأمور بصورة مواتية، لأنه من غير المحتمل أن يكون الشر أو الخير دائمين، ولأن الشر قد استمر طويلاً فلا بد للخير من أن يكون قريباً».

هذا الحكم البديع الذي صدر عن دون ميغيل دي ثربانتس سابيدرا[١] لا يشير إلى كولومبيا هذه الأيام وإنما إلى زمنه هو بالطبع، ولكننا لم نتخيل قط أن إطلاق مثل هذه الحسرات سيكون موافقاً لنا توافق الخاتم للإصبع. ذلك أن توليفاً طيفياً لما هي عليه كولومبيا اليوم لا يتيح تصديق أنه يمكن لدون ميغيل أن يقول ما قاله، وببهاء كبير، لو أنه واحد من مواطنينا في هذه الأيام. إذ يمكن لمثلين اثنين أن يكونا كافيين

---

(١) القول السابق يورده ميغيل دي ثربانتس على لسان دون كيخوته في روايته الشهيرة، ويتوجه به إلى تابعه سانتشو بانثا

لإحباط أحلامه: في العام الماضي اضطر قرابة أربعمئة ألف كولومبي إلى الهرب من بيوتهم وقطع أرضهم الزراعية بسبب العنف، مثلما فعل قبلهم نحو ثلاثة ملايين للسبب نفسه منذ حوالي نصف قرن. هذه الانزياحات البشرية كانت جنين بلد آخر في مهب الريح ـ يكاد يماثل عدد سكان بوغوتا، وربما أكبر مساحة من ميدلين ـ يهيم على وجهه دون وجهة محددة ضمن نطاقه الخاص بحثاً عن مكان يحفظ حياته فيه، ودون أية ثروات مادية سوى الملابس التي يرتديها. والتناقض الظاهري هو أن هؤلاء الهاربين من أنفسهم مازالوا ضحايا العنف الذي تغذيه تجارتان من أقوى التجارات في هذا العالم فاقد العقل: تجارة المخدرات، وبيع الأسلحة غير الشرعي.

إنها أعراض أولية لموجة القاع التي تخنق كولومبيا: بلدان اثنان في واحد، ليسا مختلفين وحسب، وإنما هما متعارضان في سوق سوداء هائلة تغذي تجارة أحلام المخدرات في الولايات المتحدة وأوروبا، وفي العالم بأسره في نهاية المطاف. لذا من المستحيل تصور نهاية للعنف في كولومبيا دون تصفية تجارة المخدرات، وليس بالإمكان تصور نهاية لتجارة المخدرات دون شرعنه المخدرات التي تزداد ازدهاراً كلما ازداد التشدد في حظرها.

أربعة عقود من كافة أنواع تعكير الأمن العام امتصت أكثر من جيل من الهامشيين الذين ليس لديهم طريقة أخرى للعيش سوى النشاط الهدام أو الإجرام العام. وقد قال ذلك الكاتب ر. هـ. مورينو دوران بصورة أشد صواباً: «من دون الموت، لا تبدو على كولومبيا مظاهر الحياة». إننا نولد مشبوهين ونموت مذنبين. ومحادثات السلام ـ باستثناءات ضئيلة ولكنها مشهودة ـ انتهت منذ سنوات إلى محادثات دماء. ومن أجل أي مسألة دولية، ابتداء من رحلة سياحية بريئة حتى أبسط عملية بيع أوْ شراء، يجب علينا نحن الكولومبيين أن نبدأ بإثبات براءتنا.

وعلى كل حال، لم يكن الجو السياسي والاجتماعي هو الأمثل لوطن السلام الذي حلم به أجدادنا. فقد رزح باكراً تحت وطأة نظام عدم مساواة، وتعليم طائفي، وإقطاعية متحجرة، ومركزية متأصلة، مع رأس مال في السحاب، ناءٍ ومتكبر، وبحزبين أبديين عدوين ومتواطئين في آن واحد، وبانتخابات دموية ومتحكم بها، وسلالة حكومات كاملة بلا شعب. ما كان يمكن إلا لطموح كبير أن يستند إلى تسع وعشرين حرباً أهلية وثلاثة انقلابات عسكرية بين الحزبين، في مرق اجتماعي يبدو أنه قد هُيّئ مسبقاً من الشيطان

لنكبات اليوم في وطن مظلوم تعلم وسط تعاسات كثيرة أن يكون سعيداً من دون السعادة، وحتى على النقيض منها.

وهكذا وصلنا إلى نقطة تكاد تسمح لنا بالبقاء على قيد الحياة، ولكن مازالت هناك أرواح صبيانية تنظر إلى الولايات المتحدة على أنها نجم قطب الخلاص، مع اليقين باستنفاد حتى إمكانية إطلاق زفرة الموت بسلام في بلادنا. ومع ذلك، فإن ما يجدونه هناك هو إمبراطورية عمياء لا تنظر إلى كولومبيا كجار جيد، ولا حتى كمتواطئ رخيص وموثوق، وإنما كمجال إضافي آخر لنهمها الإمبراطوري.

هِبتان طبيعيتان ساعدتا في تفادي فجوات شرطنا الثقافي، وفي البحث بالتلمس عن هوية والعثور على الحقيقة في ضباب عدم اليقين. إحداهما هي هِبة الإبداع. والأخرى تتمثل في تصميم جارف على الارتقاء الشخصي. لقد غذَّت هاتان الميزتان كلتاهما، منذ أصولنا، مكر أجدادنا الوطنيين الفطن في مواجهة الإسبان منذ يوم نزولهم إلى البر بالذات. فقد تملقوا الغزاة المهلوسين بروايات الفروسية وأوهموهم بوجود مدن خيالية مشيدة من الذهب الخالص أو بأسطورة ملك متشح بالذهب يسبح في بحيرات من الزمرد. إنها أعمال بارعة من مخيلة مبدعة تضخم الأشياء بوسائل سحرية للنجاة من الغازي.

حوالي خمسة ملايين كولومبي يعيشون اليوم في الخارج هرباً من النكبات المحلية دون أن تتوفر لهم أية أسلحة أخرى أو دروع حماية سوى جرأتهم أو عبقريتهم، أثبتوا أن ذلك المكر ما قبل التاريخي مازال حياً فينا من أجل البقاء على قيد الحياة لأسباب خبيثة أو حميدة. الفضيلة التي تنجينا هي أننا لا نستسلم للموت جوعاً بفعل وبفضل مخيلتنا المبدعة، لأننا عرفنا كيف نكون فقراءَ هنودً في الهند، أو معلمي لغة إنكليزية في نيويورك، أو جَمَّالين في الصحراء الكبرى. ومثلما حاولتُ أن أُثبت في بعض كتبي - إن لم يكن فيها كلها - فأنا أثق بحماقات الواقع هذه أكثر من ثقتي بالأحلام النظرية التي لا تنفع في معظم الأحيان إلا لتكميم سوء الضمير. ولهذا أعتقد أنه مازال لدينا بلد في العُمق علينا اكتشافه وسط النكبة: كولومبيا سرية لا تتسع لها القوالب التي صغناها بحماقاتنا التاريخية.

ليس مفاجئاً إذاً أن نبدأ باستشراف تمجيد لإبداع الكولومبيين الفني، وانتباهنا إلى حسن عافية البلاد بوعي حاسم بمن نحن وماذا ننفع. أظن أن كولومبيا آخذة بتعلم البقاء على قيد الحياة بإيمان لا يتزعزع، ميزته الكبرى في كونه أكثر خصباً كلما كان معاكساً أكثر. لقد فقدت كولومبيا مركزيتها بالقوة بسبب العنف التاريخي، إلا أنه

مازال بالإمكان إعادة دمج عظمتها بفعل وفضل نكباتها. وعيش هذه المعجزة بعمق يتيح لنا أن نعرف معرفة يقينية، وإلى الأبد، في أي بلد ولدنا وواصلنا العيش بين واقعين متعارضين. ولهذا لا يفاجئني في أزمنة الكارثة التاريخية هذه أن يزداد ازدهار تحسن صحة البلاد بوعي جديد. الحكمة الشعبية تشق طريقها ولسنا ننتظرها أمام باب البيت وإنما وسط الشارع، ربما دون أن تنتبه البلاد نفسها إلى أننا سنتجاوز كل شيء ونجد خلاصها حتى حيث لم يكن له من وجود.

لم تبدُ لي فرصة مناسبة أكثر من هذه للخروج من سرية مكتبي الأبدية والنوستالجية لأصوغ هذا الهذر بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لجامعة أنتيوكيا التي نحتفل بها اليوم كمناسبة تاريخية للجميع. إنها فرصة مناسبة للبدء مرة أخرى من البدء، ولأن نحب كما لم نفعل من قبل هذا البلد الذي نستحقه كي يستحقنا. وأنا أجرؤ، ولو من أجل هذا فقط، على الإيمان بأن حلم دون ميغيل دي ثربانتس موجود الآن في محطته المناسبة لاستشفاف تباشير فجر الزمن الهادئ، وأن الشر الذي أثقل علينا يجب أن يكون أقصر أمداً بكثير من الخير، وأنه على قدرتنا الإبداعية غير القابلة للنفاد فقط يتوقف الآن تمييز أيّ الدروب الكثيرة هو الصائب للعيش في سلام الأحياء والاستمتاع به بحق وإلى الأبد.

فليكن هكذا.

روح مفتوحة لتلقي رسائل بالقشتالية

كارتاخينا دي إندياس، كولومبيا، ٢٦ آذار ٢٠٠٧

أمام أكاديميات اللغة وملكيّ إسبانيا

لم أتوصل، حتى في أشد أحلامي هذياناً، في الأيام التي كنت أكتب فيها ***مئة عام من العزلة***، إلى تصور أنه يمكن رؤية طبعة من مليون نسخة. والتفكير في أنه يمكن لمليون شخص أن يقرروا قراءة شيء كُتب في عزلة حجرة، وبذخيرة تقتصر على ثمانية وعشرين حرفاً أبجدياً وإصبعين اثنين، سيبدو بكل تأكيد ضرباً من الجنون. واليوم، تحقق ذلك أكاديميات اللغة كإيماءة تكريم لرواية مرّت أمام عيون مليون قارئ مكررين خمسين مرة، ولحِرفي مؤرقٍ مثلي لم يخرج من مفاجأته بكل ما حدث.

ولكن الأمر لا يتعلق ولا يمكن له أن يتعلق بالاعتراف بكاتب. فهذه المعجزة هي دليل لا يُدحض على أن هناك أعداداً هائلة من الأشخاص

المستعدين لقراءة قصص باللغة القشتالية، وبالتالي فإن مليون نسخة من ***مئة عام من العزلة*** ليست مليون تكريم للكاتب الذي يتلقى اليوم بحياء النسخة الأولى من هذه الطبعة الضخمة. بل هو دليل إثبات على أن هناك مليون قارئ لنصوص باللغة القشتالية ينتظرون هذا الغذاء.

لم يتبدل أي شيء في روتيني ككاتب منذ ذلك الحين. فأنا لم أرَ قطّ شيئاً سوى إصبعيّ السبابتين تضربان واحداً فواحداً، وبإيقاع جيد، حروف الأبجدية الثمانية والعشرين غير المتبدلة التي أبقيتها نصب عيني طوال هذه البضعة وسبعين عاماً. وكان عليّ اليوم أن أرفع رأسي كي أحضر هذا التكريم الذي أشكركم عليه، ولا أستطيع عمل شيء آخر سوى التوقف للتفكير في ما حدث لي. ما أراه هو أن القارئ غير الموجود لصفحتي البيضاء، صار اليوم حشداً هائلاً، متعطشاً للقراءة، متعطشاً لنصوص باللغة القشتالية.

إن قراء ***مئة عام من العزلة*** يشكلون مجتمعاً، لو قيض له العيش على قطعة الأرض نفسها، سيكون أحد أكثر عشرين بلداً كثافة سكانية في العالم. وهذا ليس تأكيداً متبجحاً، بل على العكس. فأنا أريد أن أُثبت أن هناك أعداد من الكائنات البشرية أكدت بعادتها في القراءة أن لها روحاً مفتوحة للامتلاء برسائل باللغة القشتالية. وهذا

التحدي لجميع الكتّاب، لجميع الشعراء، لجميع القصاصين والمربين بلغتنا ـ من أجل ريّ ذلك الظمأ وتكثير تلك الحشود ـ هو مسوغ حقيقي لوجود مهنتنا ولوجودنا نحن أنفسنا طبعاً.

في الثامنة والثلاثين من عمري، وبعد ثلاثة كتب منشورة منذ بلوغي العشرين، جلست قبالة الآلة الكاتبة وكتبت: «بعد سنوات طويلة، وأمام فصيلة الإعدام، سيتذكر الكولونيل أوريليانو بوينديا ذلك المساء البعيد الذي أخذه فيه أبوه للتعرف على الجليد». لم تكن لدي أدنى فكرة عن معنى أو أصل هذه الجملة، ولا إلى أين ستقودني. ما أعرفه اليوم هو أني لم أتوقف عن الكتابة ولو ليوم واحد طيلة ثمانية عشر شهراً، إلى أن أنهيت الكتاب.

قد يبدو كذباً، ولكن إحدى أشد مشاكلي وطأة كانت تتمثل في تأمين الورق للآلة الكاتبة. وكان لدي سوء التربية بالاعتقاد أن الأخطاء الطباعية، أو اللغوية، أو النحوية، هي في الواقع أخطاء إبداعية، وكلما اكتشفت شيئاً منها أمزق الورقة وألقي بها إلى سلة المهملات لأبدأ من جديد. وبالإيقاع الذي كنت قد اكتسبته في عام من الممارسة، قدّرت أنني سأحتاج إلى فترات عمل صباحية يومية طوال ستة شهور كي أنهي الكتاب.

كانت إسبيرانثا أرايثا، «بيرا» التي لا تُنسى، هي ضاربة الآلة الكاتبة لشعراء وسينمائيين، تولت طباعة نسخ نهائية لكتب عظيمة لكتّاب مكسيكيين، منها ***المنطقة الأكثر شفافية*** لكارلوس فوينتس، و***بيدرو بارّامو*** لخوان رولفو، وعدة سيناريوهات أصلية لأفلام لويس بونويل. وعندما طلبتُ منها أن تطبع لي مبيضة من النسخة النهائية، كانت الرواية مسودة تخترقها رقع إضافات وتصويبات، بالحبر الأسود أولاً، وبعد ذلك بالحبر الأحمر، من أجل تفادي البلبلة. ولكن ذلك لم يكن شيئاً يُذكر بالنسبة إلى امرأة معتادة على كل شيء في قفص المجانين ذاك. بعد سنوات، اعترفت لي بيرا بأنها حين أخذت مني النسخة الأخيرة التي تحمل تصحيحاتي، انزلقت لدى النزول من الحافلة في وابل مطر طوفاني، وطفت الأوراق في مستنقع الشارع. فجمعتها مبللة وغير مقروءة تقريباً بمساعدة آخرين من ركاب الحافلة، وجففتها في بيتها، ورقة ورقة، بمكواة ملابس.

ما يمكن أن يكون موضوعاً لكتاب آخر أفضل هو كيف ظللنا على قيد الحياة، ميرثيدس وأنا، مع ابنينا خلال ذلك الوقت الذي لم أكسب فيه سنتافو واحداً من أي مكان. بل إنني لا أدري كيف تدبرت ميرثيدس الأمور خلال تلك الشهور كيلا نفتقد الطعام ولو

ليوم واحد في البيت. كنا قد قاومنا إغراء الديون بفائدة إلى أن ثبتنا قلبينا وانطلقنا في غزواتنا الأولى إلى **جبل الرحمة**.

بعد التسكين العابر ببعض الأشياء الضئيلة، كان لا بد من اللجوء إلى مجوهرات ميرثيدس التي تلقتها من أهلها عبر السنين. تفحصها الخبير بصرامة طبيب جرّاح، ومر بعينه السحرية وتفحص أقراط الماس، وزمرد العقد، وياقوت الخواتم، ثم أعادها إلينا أخيراً بحركة فيرونيكا[1] طويلة لمصارع عجول: «هذا كله مجرد قطع زجاج».

وفي أوقات المصاعب الكبرى، أجرت ميرثيدس حساباتها الفلكية وقالت لصاحب البيت الصبور، دون أي رعشة في صوتها:

ـ سنتمكن من أن ندفع لك كل شيء دفعة واحدة خلال ستة شهور.

ـ عذراً يا سيدتي ـ أجابها المالك ـ ألا تدركين أن المبلغ سيكون عندئذ هائلاً؟

ـ أدركُ ذلك ـ قالت ميرثيدس ـ ولكننا سنتوصل عندئذ إلى حل مشاكلنا كلها. كن مطمئناً.

---

(١) حركة فيرونيكا verónica: حركة في مصارعة الثيران يمسك فيها المصارع الرداء من طرفيه بكلتا يديه كي يمر الثور من خلاله.

والمجاز الطيب، والذي كان موظفاً كبيراً في الدولة، وأحد أكثر الرجال أناقة وصبراً بين من عرفتهم، لم يرتعش صوته أيضاً وهو يجيب:

ـ لا بأس يا سيدتي، كلمتك تكفيني. ـ ثم أجرى حساباته القاتلة ـ سأنتظرك في السابع من أيلول.

وأخيراً، في بداية شهر آب ١٩٦٦ ذهبتُ أنا وميرثيدس إلى مكتب البريد في مدينة مكسيكو كي نرسل إلى بوينس آيرس النسخة الجاهزة من ***مئة عام من العزلة***، رزمة من ٥٩٠ ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة بفراغ مزدوج بين السطور وعلى ورق نظامي، موجهة إلى فرانثيسكو بوروا، المدير الأدبي لدار نشر سودأميركانا.

وضع موظف البريد الرزمة في الميزان، ثم أجرى حساباته الذهنية وقال:

ـ اثنان وثمانون بيزو.

عدّت ميرثيدس الأوراق النقدية والقطع المعدنية المتفرقة المتبقية في حقيبتها وواجهت الواقع.

ـ لدينا ثلاثة وخمسون فقط.

فتحنا الرزمة، وقسمناها إلى قسمين متساويين وأرسلنا أحدهما إلى بوينس آيرس دون أن نتساءل حتى عن كيف سنحصل على النقود لإرسال البقية. وعندئذ فقط انتبهنا إلى أننا لم نرسل القسم الأول وإنما الأخير. ولكن قبل أن نتمكن من الحصول على النقود اللازمة لإرساله، كان باكو بوروا، رجلنا في دار نشر سودأميركانا، متلهفاً لقراءة النصف الأول من الكتاب، وأرسل لنا سلفة نقود كي نتمكن من إرساله.

وكان أن عدنا للولادة هكذا في حياتنا الجديدة اليوم.

ملاحظات حول الخطابات

أكاديمية الواجب

ثيباكيرا، كولومبيا، ١٧ تشرين الثاني، ١٩٤٤

في وداع زملاء الصف عام ١٩٤٤ ، بسنة أعلى من سنه، ينهي دراسة المرحلة الثانوية في المدرسة الوطنية للذكور بثيباكيرا. وقد تمكن غابرييل غارسيا ماركيز، بفضل منحة دراسية، من مواصلة الدراسة الثانوية كتلميذ مقيم في مدرسة ثيباكيرا الوطنية للذكور.

كيف بدأتُ الكتابة

كاراكاس، فنزويلا، ٣ أيار ١٩٧٠

ألقي في آتينيو كاركاس. وأعيد نشره بعد ذلك في جريدة ***الإسبكتادور*** ببوغوتا. وبحسب خوان كارلوس ثاباتا في مقالة له بعنوان «غابو ولد في كاركاس، وليس في أراكاتاكا»، أن الصحفي نيكولاس ترينكادو ذهب إلى المنتدى حين علم أن

غابرييل غارسيا ماركيز سيشارك فيه، وهناك وجده، «نحيلاً، كث الشارب، وبسيجارة مشتعلة». القصة التي رواها على المستمعين مع تنبيهه لهم بأنها «فكرة تدور في ذهني منذ عدة سنوات»، تحولت إلى سيناريو سينمائي لفيلم ***نبوءة***، من إخراج لويس ألكوريثا عام ١٩٧٤

من أجلكم أنتم

كاراكاس، فنزويلا، ٢ آب ١٩٧٢

لدى تلقيه جائزة روميلو غاييغوس الدولية للرواية
في دورتها الثانية على روايته *مئة عام من العزلة*

في مسرح باريس. كانت لجنة التحكيم مؤلفة من ماريو بارغاس يوسا، وأنطونيا بالاثيوس، وإمير رودريغيث مونيغال، وخوسيه لويس كانو، ودومينغو ميلياني. وكانت الصحافة قد ذكرت أنه فضلاً عن هذه الرواية الفائزة، وصلت إلى التصفية النهائية الروايات التالية: ***تأمل*** لخوان بينيت، و***ثلاثة نمور حزينة*** لغييرمو كابريرا إنفانتي، و***عندما أريد البكاء لا أبكي*** لميغيل أوترو سيلفا.

وطن آخر مختلف

مدينة مكسيكو، ٢٢ تشرين الأول ١٩٨٢

في قاعة بينوستيانو كارّاثا دي لوس بينوس، وأمام رئيس الجمهورية خوسيه لوبيث بورتيّو ووزير خارجية كولومبيا رودريغو يوريدا. ومثلما هي مراسم البروتوكول، قام وزير خارجية المكسيك خورخي كاستانيدا آي ألباريث دي لا روسا بتقليده الوسام. وهو أعلى وسام تقدمه الحكومة المكسيكية لشخص أجنبي.

عزلة أميركا اللاتينية

ستوكهولم، السويد، ٨ كانون الأول ١٩٨٢

في قاعة الحفلات الموسيقية بستوكهولم. تلقى الروائي ومعه ستة علماء ـ كينت ويلسون (فيزياء)، آرونا كلوغ (كيمياء)، سون برغسترويم وجون ر. فانس (طب)، وجورج ج. ستيتغلر (اقتصاد) ـــ تلقوا من ملك السويد، كارل السادس عشر غوستاف وزوجته سيلفيا، جائزة التكريم المشهورة. وفضلاً عن أنه كان الشخصية المركزية في الاحتفال، كسر غابرييل غارسيا ماركيز تقليداً عُمل به طوال تاريخ جوائز نوبل بحضوره مرتدياً ثياباً تقليدية كاريبية، معروفة باسم ليكيليكي، بدلاً من التقليد الصارم بارتداء سترة الفراك.

نخب الشعر

أول ١٩٨٢
خلال المأدبة التي أقامها ملك وملكة السويد
على شرف من تلقوا جوائز نوبل

أقيم العشاء الرسمي في القاعة الزرقاء بقصر بلدية ستوكهولم. وفي مقاله الذي يحمل عنوان «حسن الحظ بعدم الوقوف بالدور»، المنشور يوم ٤ أيار ١٩٨٤، والذي ضُمِّن بعد ذلك في كتاب ***أعمال صحفية، الجزء الخامس، ١٩٦١ ـ ١٩٨٤***، يتذكر غارسيا ماركيز: «طلبوا مني التوقيع على استمارة مطبوعة، وفيها أتنازل لمؤسسة نوبل عن حقوق المؤلف عن محاضرتي وعن نخبي للشعر ـ وكنتُ قد ارتجلته في تسرع الساعات الأخيرة بالتعاون مع الشاعر ألبارو موتيس ـ، ثم وقعت نسخاً من كتبي بالسويدية لموظفي المؤسسة...»

كلمات لألفية جديدة

هافانا، كوبا، ٢٩ تشرين الثاني ١٩٨٥
الملتقى الثاني للمثقفين من أجل سيادة شعوب قارتنا الأمريكية

الخطاب المركزي في جلسة افتتاح الملتقى، في مقر كاسا دي لاس أميركاس. وكان بينَ الحاضرين: فريي بيتو، وإرنستو كاردينال،

وخوان بوش، ودانييل فيغليني، وأزفالدو سوريانو، مع ثلاثمئة مثقف آخر من مختلف بلدان القارة.

كارثة ديموقليس

إكستابا ـ زيهواتانيخو، المكسيك، ٦ آب ١٩٨٦
اجتماع القمة الثانية لمجموعة الستة

خطاب افتتاحي لاجتماع مجموعة الستة: الأرجنتين، المكسيك، تنزانيا، الهند، السويد، حول السلام ونزع السلاح حيال التهديد النووي، بحضور رؤساء البلدان الأعضاء: راؤول ألفونسين (الأرجنتين)، وميغيل دي لامدريد هويرتا (المكسيك). ورؤساء الحكومات اندريس باباندريو (اليونان)، إنغفار كارلسون (السويد)، وراجيف غاندي (الهند)، وجوليوس نيريري (تنزانيا)

فكرة غير قابلة للتدمير

هافانا، كوبا، ٤ كانون الأول ١٩٨٦
في حفل افتتاح مقر مؤسسة السينما الأمريكية اللاتينية الجديدة

في المؤسسة الكائنة بمزرعة سانتا باربرا القديمة، في دارة كبيرة قديمة بحي مارياناو، تُدشن المدرسة الدولية للسينما والتلفزيون والفيديو بسان

أنطونيو دي لوس بانيوس، وهي المعروفة أيضاً باسم «مدرسة العالم الثالث». تكلم غارسيا ماركيز بوصفه رئيس المؤسسة.

مقدمة للألفية الجديدة

كاراكاس، فنزويلا، ٤ آذار ١٩٩٠
افتتاح معرض تصور وخيال:
٧٥ عاماً من الرسم الأمريكي اللاتيني

عرضت العيِّنة في متحف الفنون الجميلة، تحت إشراف الناقد الفنزويلي روبرتو غيفارا، وبتنسيق ميلاغروس مالدونادو. وقد اتُخذ خطاب غارسيا ماركيز مقدمة لكتالوغ المعرض.

شارك في المعرض كل من: أنطونيو باريرا وألبارو باريوس من كولومبيا، وخوسيه بيديا من كوبا، وسيرون فرانكو من البرازيل، خوليو غالان من المكسيك، وغييرمو كويتكا من الأرجنتين، وآنا منديتا من كوبا، وخوان فيثنته هيرنانديث (*باخرو*) من فنزويلا، وبانتشو كيليشي من فنزويلا، وأرنالدو روتشي من بويرتو ريكو، وأنطونيو خوسيه دي ميّو موراو (*تونغا*) من البرازيل، وكارلوس ثيربا من فنزويلا.

تحالف بيئي لأميركا اللاتينية

غوادالاخارا، المكسيك، ١٩ تموز ١٩٩١
القمة الأمريكية اللاتينية الأولى لمجموعة المئة

قدم غارسيا ماركيز مداخلته في اجتماع القمة هذا خلال اليوم الثاني والأخير من الفعاليات ليسلّم، باسم «أناس الفنون والآداب» في القارة، الاقتراح بخلق اتحاد بيئي أمريكي لاتيني.

ومجموعة المئة التي تأسست في أول آذار ١٩٨٥ ، هي هيئة من مئة فنان ومثقف وعالم ملتزمين بفعالية في مناقشة وحلّ المشاكل البيئية.

لستُ موجوداً هنا

هافانا، كوبا، ٨ كانون الأول ١٩٩٢

تشكل قاعة سينما غلوبير روتشا جزءاً من المجمع الثقافي لمقر مؤسسة السينما الأمريكية اللاتينية الجديدة. وفي هذه القاعة التي هي مركز ثقافي بحد ذاتها تقام، فضلاً عن عروض الأفلام، ندوات وتعقد مؤتمرات وطنية ودولية، وتقدم عروض مسرح ورقص وحفلات موسيقى الحجرة.

على شرف بيليساريو بيتانكور

بمناسبة بلوغه السبعين
سانتافي دي بوغوتا، كولومبيا، ١٨ شباط ١٩٩٣

جرى الاحتفال في بيت الشعر خوسيه أسونثيون سيلفا. وكانت الدعوة للاحتفال بعيد الميلاد السبعين للرئيس الكولومبي السابق تحمل توقيع غابرييل غارسيا ماركيز، وألبارو موتيس، وألفونسو لوبيث ميتشيلسين، وخيرمان أرثينيّغاس، وخيرمان إسبينوسا، وأبيلاردو فوريرو بينابيديس، وهيرناندو بالينثيا غويلكيل، ورفائيل غوتيريث خيراردوت، وأنطونيو كابايرو، وداريو خاراميّو أغوديلو، وماريا مرثيديس كارّاثا، مديرة بيت الشعر خوسيه أسونثيون سيلفا، وآخرين.

صديقي موتيس

سانتافي دي بوغوتا، كولومبيا، ٢٥ آب ١٩٩٣
بمناسبة بلوغ ألبارو موتيس السبعين

كلمة ألقاها غابرييل غارسيا ماركيز أمام صديقه ألبارو موتيس خلال العشاء الرسمي الذي أقيم بمناسبة عيد ميلاده السبعين في بيت نارينيو في بوغوتا، مقر رئاسة الجمهورية الكولومبية، حيث

منحته حكومة الرئيس سيسر غافيرا وسام صليب بوياكا. وفي السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ٢٠٠٧، وفي إطار الدورة الحادية والعشرين من معرض غوادالاخارا للكتاب، المخصصة لكولومبيا، جرى تكريم ألبارو موتيس، وقرأ الرئيس الكولومبي السابق بيليساريو بيتانكور «مع الإذن من غارسيا ماركيز»، هذا النص نفسه.

الأرجنتيني الذي جعل الجميع يحبونه

مدينة مكسيكو، ١٢ شباط ١٩٩٤

في قصر الفنون الجميلة بمدينة مكسيكو. أُلقي الخطاب ـ وكان قد نشر قبل ذلك كمقال في ٢٢ شباط ١٩٨٤، بعد أيام قليلة من وفاة خوليو كورتاثار ـ تكريماً للكاتب بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ. وسيُقرأ النص نفسه على مائدة افتتاح ندوة «خوليو كورتاثار مُرَاجَعاً»، يوم ١٤ شباط ٢٠٠٤، بمدينة غوادالاخارا، بولاية خاليسكو المكسيكية، في التكريم الذي قدمه كرسي الأستاذية خوليو كورتاثار بجامعة غوادالاخارا، وترأسه كل من غابرييل غارسيا ماركيز وكارلوس فوينتس، بعد عشرين عاماً على وفاة الكاتب الأرجنتيني.

أمريكا اللاتينية موجودة

كونتادورا، بنما، ٢٨ آذار ١٩٩٥
«مختبر» مجموعة كونتادورا حول موضوع
«هل أميركا اللاتينية موجودة؟»

كان حاضراً: رئيس أروغواي السابق لويس ألبيرتو لاكاييه، كمحاضر، وغابرييل غارسيا ماركيز (وكان آخر المتكلمين في اللقاء)، وميغيل دي لامدريد هورتادو (رئيس المكسيك السابق)، وسيرخيو راميريث (نائب رئيس نيكاراغوا السابق) وفرانسيسكو ويفورت (وزير الثقافة البرازيلي)، وأغوسطو راميريث أوكامبو (وزير خارجية كولومبي سابق).

في سياق الأزمة التي عصفت بأميركا الوسطى، ولدت مجموعة كونتادورا للمساهمة في السلام والديمقراطية في المنطقة، في التاسع من كانون الثاني ١٩٨٣، وشكل أعضاؤها الأوائل كل من كولومبيا، والمكسيك، وبنما، وفنزويلا. وقد اتخذت المجموعة اسمها من اسم الجزيرة البنمية التي اجتمع فيها وزراء خارجية هذه البلدان الأربعة لتأسيس المجموعة.

طبيعة مختلفة في عالم مختلف عن عالمنا

سانتافي دي بوغوتا، كولومبيا، ١٢ نيسان ١٩٩٦
«كاتدرا دي كولومبيا»

افتتحت القوات المسلحة الكولومبية رسمياً البرنامج الذي يحمل عنوان «كاتدرا دي كولومبيا» بمحاضرة «دولة القانون والقوة العامة»، ألقاها وزير الدفاع الوطني الكولومبي آنذاك، خوان كارلوس إسغيرّا بورتوكاريرو.

وحاضر في البرنامج الأكاديمي، أمام جمهور مؤلف من عسكريين، كلّ من غارسيا ماركيز، ورودريغو باردو غارثيا، والمدعي العام ألفونسو بالدييسو سارميّنتو، والمؤرخ خيرمان آرثينيغاس، والوزيران السابقان خوان مانويل سانتوس وردولفو هوميس، وكذلك أورلاندو فالس بوردا، والكاتب غوستافو ألباريث غاردياثابال.

الصحافة: أفضل مهنة في العالم

لوس أنجلس، الولايات المتحدة، ٧ تشرين الأول ١٩٩٦

خطاب افتتاحي ألقاه غابرييل غارسيا ماركيز بوصفه رئيس مؤسسة الصحافة الجديدة الإيبروأمريكية.

قارورة إلى البحر

من أجل إله الكلمات

ثاكاتيكاس، المكسيك، ٧ نيسان ١٩٩٧
المؤتمر الدولي الأول للغة الإسبانية

حامل جائزة نوبل في الأدب الذي كرمه المؤتمر، قدم مداخلة في افتتاح المؤتمر وأثار مناظرة كبيرة حين دافع عن إحالة قواعد الإملاء والتهجئة إلى التقاعد.

أحلام للقرن

الحادي والعشرين

باريس، فرنسا، ٨ آذار ١٩٩٩
ندوة «أميركا اللاتينية والكاريبي
في مواجهة الألفية الجديدة»

نظم البنك الدوْلي للتطور ومنظمة اليونسكو هذه الندوة في باريس يومي ٨ و ٩ آذار. وقد ألقى غابرييل غارسيا ماركيز، كضيف خاص على الملتقى، خطاب الافتتاح الموجز هذا.

الوطن محبوب وإن كان بعيداً

ميدلين، كولومبيا، ١٨ أيار ٢٠٠٣
الملتقى الدولي «نحو عقد اجتماعي جديد في العلم والتكنولوجيا من أجل تطور عادل»

في الاحتفال لإحياء الذكرى المئتين لتأسيس جامعة أنتيوكيا، سُجل هذا النص بصوت غارسيا ماركيز وأُرسل إلى ميدلين، حيث جرى بثه في الساعة السادسة مساء، في يوم افتتاح الملتقى في مسرح كاميليو توريس.

روح مفتوحة لتلقي رسائل بالقشتالية

كارتاخينا دي إندياس، كولومبيا، ٢٦ آذار ٢٠٠٧
أمام أكاديميات اللغة وملكيّ إسبانيا

في قصر المؤتمرات بمدينة كارتاخينا، وخلال افتتاح المؤتمر الرابع للغة، على شرف غابرييل غارسيا ماركيز. كان المؤلف قد أكمل الثمانين من عمره في السادس من آذار، ويجري الاحتفال بمرور أربعين عاماً على نشر مئة عام من العزلة بإصدار طبعة تذكارية، والاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لنيله جائزة نوبل.

ملاحظة الناشر

النصوص التي جمعها غابرييل غارسيا ماركيز في هذا الكتاب كُتبت لتُقرأ أمام جمهور، وهي تغطي عملياً حياته كلها، منذ النص الذي كتبه في السابعة عشرة من عمره لوداع زملائه في الفصل الأخير بمدرسة ثيباكيرا، عام ١٩٤٤، حتى النص الذي قرأه أمام أكاديمية اللغة وبحضور ملكي إسبانيا عام ٢٠٠٧

في النصوص الأولى يظهر واضحاً الصدود الذي يشعر به الكاتب الكولومبي تجاه الخطابة. «لم آتِ لألقي خطاباً»، هذا هو التنبيه الذي يقدمه لزملاء المدرسة في المرة الأولى التي يصعد فيها إلى المنصة، وهي الجملة التي اختارها كاتبنا عنواناً لهذا الكتاب. وفي النص التالي «كيف بدأتُ الكتابة»، والذي قرأه كمؤلف ناجح ومشهور لرواية ***مئة عام من العزلة***، في العام ١٩٧٠، ينبه مستمعيه مسبقاً إلى نفوره من الخطابة: «بدأتُ أصير كاتباً بالطريقة نفسها التي صعدت بها إلى هذه المنصة: مكرهاً» وفي محاولته الثالثة، عند تلقيه جائزة روميلو غاييغوس، عام ١٩٧٢، يؤكد أنه قد رضي «الإقدام على عمل شيئين من الأشياء التي عاهدت نفسي على عدم القيام بها أبداً: تلقي جائزة وإلقاء خطاب».

بعد عشر سنوات من ذلك تلقى غابرييل غارسيا ماركيز جائزة نوبل في الآداب، ووجد نفسه تحت وطأة الحاجة الملحة إلى كتابة أهم خطاب يمكن لأي كاتب أن يواجهه في حياته. وكانت النتيجة عملاً بارعاً:

«عزلة أميركا اللاتينية». ومنذ ذلك الحين، تحولت الخطابة إلى جنس أدبي أساسي في مسيرته ككاتب يتلقى التقدير والتكريم، وكان حضوره وكلماته مطلوبة على طول هذا العالم وعرضه.

لقد نلت، في هذه الطبعة، امتياز العمل مع المؤلف كتفاً إلى كتف، حرفياً، من أجل مراجعة النصوص. والتعديلات التي أُجريت هي تصويب لأخطاء مطبعية شائعة، وقراره في وضع عناوين لبعض الخطابات التي ظلت تُعرف حتى الآن بالمناسبة التي أُلقيت فيها، كما هو خطاب جائزة روميلو غاييغوس، والذي صار عنوانه هنا «من أجلكم». إن إعادة قراءة هذه النصوص المتفرقة أو المنسية من جنس أدبي كان الكاتب يعتبره على الدوام «الأشد رهبة بين الالتزامات الإنسانية»، حمل غارسيا ماركيز إلى التصالح معها والتعليق عليها بالقول: «بقراءة هذه الخطابات أُعيد اكتشاف كيف رحتُ أتحول وأتطور ككاتب». ففي هذه الخطابات لا توجد موضوعات أدبه المركزية وحسب، وإنما كذلك آثار تساعد على فهم أعمق لحياته.

شكرنا الجزيل إلى غابرييل غارسيا ماركيز وزوجته ميرثيدس بارتشا على حسن ضيافتهما وكرمهما، خلال جلسات العمل، مما أتاح إنهاء هذا الكتاب. والشكر كذلك لابنيه رودريغو وغونثالو لاهتمامهما الحماسي، من مكان إقامتهما البعيد، باكتشاف خطاب منسي أو تقديم رأييهما حول العناوين أو الغلاف. وشكري أخيراً للبروفيسور آنيبال غونثالث بيريث من جامعة يال على مرافقته لي في طباعة هذا الكتاب، وفي العثور على الخطاب الذي يُفتتح به.

كريستوبال بيرا

فهرس

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١١م
عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

آفـــاق ثقـافيـــة

لقد ظننتُ على الدوام، خلافاً لوجهات نظر أخرى محترمة جداً، أننا نحن الكتّاب لم نوجد في الدنيا من أجل أن نُتوج، وكثيرون منكم يعرفون أن أي تكريم عام هو بداية تحنيط. لقد ظننت على الدوام، باختصار، أننا نحن الكتّاب لسنا كتّاباً بفعل مزايانا الخاصة، وإنما بفعل نكبة أننا لا نستطيع أن نكون شيئاً آخر، وأن عملنا المتوحد يجب ألا يستحق مكافأة أو امتيازاً أكبر من ذاك الذي يستحقه الحذَّاء على صنع حذائه.

ماركيز



www.syrbook.gov.sy
٢٠١١م

